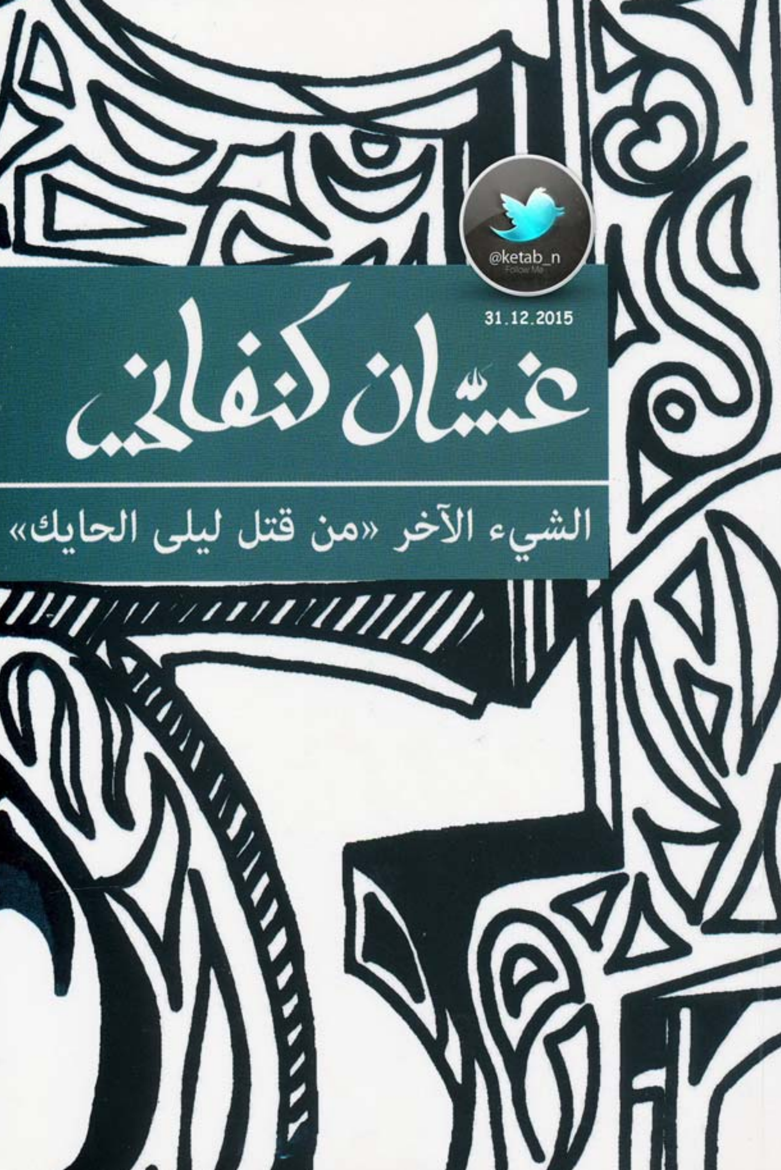

@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
الشيء الآخر «من قتل ليلى الحايك»

رواية

غسّان كنفاني

الشيء الآخر «من قتل ليلى الحايك؟»

منشورات الرمال



مؤسسة غسّان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-88-4

نشرت هذه الرواية في طبعتها الأولى سنة 1980
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف: لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

أنا لم أقتل ليلى الحايك..

أقولها لك أنت يا ديما الحبيبة الرائعة..

وأقولها لكم جميعاً أيضاً.

أقولها لكم للمرة الأخيرة، دون أن أتوقع مردوداً لا بالجزاء ولا بالعقاب. ولذلك لا بد أن تكون صادقة: فليس ثمّة أصدق من حكم يطلقه على نفسه رجل ميت!

أنا لم أقتل ليلى الحايك..

ولست أريد لأحد أن يمنحني الشفقة إذا أقنعته هذه الكلمة بأن رجلاً بريئاً قد شنق. ولست أقولها لأي غرض. وليس لهذه الحقيقة أن تفعل أيما شيء مع العدالة. فقد كانت القضية كلها، قبل أن يكتشفها القضاء وبعد أن أصدر حكمه فيها، فوق قدراتنا جميعاً ووراء منطقنا، ولذلك ارتضيت كل دقائقها صامتاً، كما تعلمون.

ليس تماماً.

لقد تكلمت كثيراً في الساعات الأولى، دافعت عن نفسي بالحقائق التي يستطيع الرجل المفرد أن يراها، ثم فجأة - كما ينشدّ حبل ما حول عنق إنسان فيرفع في لحظة واحدة جداراً حاسماً بين الموت والحياة - قررت أن أصمت.

لقد استغرب الكثيرون مني أنا بالذات أن ألتزم الصمت في حين أخذت الدلائل كلها تدفعني أكثر فأكثر نحو حبل المشنقة.. أنا الذي ما تعودت أن أصمت حين كان الموت يهدد الرجال الذين سلموني، بقدرية لا مثيل لها، حبال مصائرهم.

وأنـت، يا ديما الحبيبة الرائعة، كنت بلا شك أكثر الناس استغراباً..

فيما مضى كنت أرمقك وأنت جالسة في مقاعد الحضور تنظرين إليّ مغتسلةً بإعجاب كان يستثيرني وأنا منصرف إلى الدفاع عن المتهمين.. وحين كنت أنتزع من منصة القضاء حكماً بإبطال الموت عن موكلي كنت أعتبر هذا النصر هدية لعينيك وحدك، وكنتُ دائماً - أصدقك عواطفي الآن - أنغمس وأنا سابح في انتصاري بتصورك تلك الليلة بين ذراعي.. كنت تمنحينني عاطفة عميقة غريبة كأن إنقاذي لموكلي هو وحده الذي أتاح لك أن تنامي

في الفراش معي، كأن تخليص إنسان من الموت كان يوقد في لحمك أنت وهج الحياة.. وكأنك - اسمحي لي - كنت تنامين تلك الليلة مع إله من نوع نادر بعث الناس فجأة إلى الحياة ولوّن العالم.

ترى.. كيف تفكرين الآن؟ هل تعتقدين لحظة أنني أنا الذي قتلت صديقتك ليلى الحايك؟ هذا السؤال هو الذي كان، وحده، يؤرقني في الليالي التي أمضيتها وحيداً في الزنزانة..

لا يا ديما الرائعة.. أنا لم أقتل ليلى الحايك!

تقولين: إذن لماذا التزمت الصمت طوال الوقت؟ ما الذي ربط لسانك؟ لماذا لم تدافع عن حياتك أنت الذي خلصت حياة الكثيرين من حبل المشنقة؟

هذه هي قصتي كلها..

إنها الجواب على هذه الأسئلة التي حيّرت الجميع وحيّرتك أنت خصوصاً وحيّرتني أنا - في البدء - أكثر من أي إنسان آخر.

لقد كان صمتي إعلاناً راعداً عن «شيء آخر» في حياتنا عشنا دائماً في معزل عنه فإذا به، فجأة، أقوى ما في حياتنا.

مَن الذي قتل ليلى الحايك إذن؟

أجيبك ببساطة: شيء آخر هو الذي قتل ليلى الحايك، شيء لم يعرفه القانون ولا يريد أن يعرفه.. شيء موجود فينا، فيك أنت، فيّ

أنا، في زوجها، وفي كل شيء أحاط بنا جميعاً منذ مولدنا.

نعم: أنا جزء من الجريمة، وأنت كذلك... ولكن الذي نفّذ الجريمة هو وحش غامض ما زال - وسيظل - طليقاً.

لقد صمتُ حين اكتشفت هذه الحقيقة فجأة.. وجدت نفسي في الفخ، وعانيت ما عاناه كل إنسان اكتشف فجأة شيئاً لم يكن رفاقه قد اعتادوا عليه بعد، ولذلك قررت أن أصمت، وأن أترك كل شيء يأخذ مجراه الذي سار فيه دون إرادتنا وسيظل يسير فيه بصرف النظر عن إرادتنا..

إن هذه الأمور شديدة التعقيد حين نقولها، ولكن حين تمارسها الأحداث معنا تصبح غير ذلك.

ولهذا بالضبط قررت أن أكتب لك أنت.. لأنني أحبك، ولأنني لمحت في عينيك وأنا جالس في القفص أستمع إلى حكم القضاء ومضة شك أرعبتني.

وسوف لن أزيد شيئاً على ما حدث، وسأبرّر الأمور لك حين أشعر أنها في حاجة إلى تبرير، ولكنني سأقول الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق.

وأنت - بعد ذلك - حرّة في أن تعتقدي ما تشائين. فأنا في الواقع أضع على كتفيك الحمل الثقيل الذي واجهته بالصمت.. فإذا

اخترتِ أن تواصلي الصمت وتطوي المسألة برمّتها فهذا يعني أنني أنا أيضاً كنت على صواب.

وإذا اخترتِ أن تفتحي الملف أمام القضاء مرة أخرى فسترين بعينيك أنك ستدخلين إلى عالم غريب لا مخرج منه تفضّلين فيه لو أنك اخترت - مثلي - أن تصمتي.

اجلسي الآن بهدوء على كرسيك المفضّل قرب باب الشرفة، واقرأي القصة كلها بعناية.. وسأبدأ من النقطة التي لم يتيسر لي قط أن أرويها لك.

في منتصف نيسان الماضي بدأت القصة بالنسبة لك على الأقل.

استدعاني المحقق إلى مكتبه في التاسعة والنصف صباحاً، كان قد سأل سكرتيرتي هناء عني في التاسعة وحين قالت له إنني أصل في التاسعة والربع إلى مكتبي، قال لها أنه سيخابرني فيما بعد، وأنه لا يريد إزعاجي في البيت.

وجاء صوته في الهاتف لطيفاً ودافئاً، عكس المطر الذي كان يجلد النافذة. وقد دخل إلى الموضوع مباشرة ولكن دونما عنف، وأبلغني:

- سنحتاجك نصف ساعة هنا يا أستاذ صالح، في مسألة مستعجلة لو سمحت.

سجلت على دفتر الملاحظات ملاحظتَين لهناء، وألغيت موعداً، لم ينتابني أي شعور غير عادي، فالمسألة بالنسبة لرجل يعمل في المحاماة مثلي مسألة عادية تماماً، تناولت مظلّتي وطلبت من السائق أن يوصلني إلى مكتب المحقق الذي كان يعرفه جيداً.

اجتزت الرواق دونما اعتراض - كالعادة - وتبادلت تحية الصباح مع عدد من الموظفين الذين كانوا يعرفونني جيداً، ودخلت إلى غرفة المحقق دون استئذان - كالعادة - وهناك فقط جاءني للحظة واحدة شعور غير مريح حين تجاهل يدي الممدودة ولم يقف.

تكلم بهدوء، ولكن بثقة وبرود، فيما كان يقلّب بين أصابعه الغليظة علبة ثقاب، وقد بدأ، كما على الهاتف، مباشرة ودونما عنف:

- سنسألك سؤالين عن ليلى الحايك.

وخفق قلبي خفقة بعيدة ليس بوسع أحد اكتشافها أو ملاحظتها، فطوال الشهور الثلاثة الماضية كنت قد تعلمت أن أجعل بدني بأجمعه، على السطح، يمرّ مروراً عادياً فوق اسمها حين كان يلفظ أمامي: في المكتب أو في البيت، من سكرتيرتي أو من زوجتي أو حتى من زوجها وأصدقائه.

وبهدوء، سألت:

- ماذا عن السيدة الحايك؟

- متى شاهدتها آخر مرة؟

ولاحظت وراء جفنيه بريق العين التي تعرف أنها في تلك اللحظة تلعب لعبة الذكاء، فتراجعت في مقعدي وفكرت. كنت أفكر حقاً لأتذكر آخر مرة شاهدتها فيها على مرأى من شاهد، وقلت:

- منذ يومين، كما أعتقد. إنني لا أذكر تماماً.

وبجفاء وضع الأمر كله على الطاولة بيني وبينه:

- يجب أن تذكر تماماً، الآن.

- إنني لا أذكر تماماً، فهي صديقة زوجتي وزوجها صديقي وثمّة قضية في المحاكم نتعامل معها سوية، وأراها عادة في أمكنة عديدة دون مناسبة أو في مناسبة. ولكن ذلك لا يعني شيئاً، ولست مطالباً بأن أدوّنه في مفكرتي.

واقتربت من الطاولة وسألت:

- ولكن هل أستطيع، لو سمحت، أن أعرف لماذا كل هذه الأسئلة؟

وقام عن طاولته ودار حولها واضعاً كفّيه في جيبيّ صدارته

الرمادية، واقترب مني أكثر مما يقترب المحقق، عادة، من المحامي، ولكن أقلّ مما يقترب من المتهم، وقذف الجملة في وجهي كما تنقذف سدادة زجاجة:

- لأنها قتلت.

لقد جاءت الكلمة إلى أذني أولاً وبالطبع، ولكن حين ارتدّ صداها من الحائط الداكن كنت قد ابتلعتها حتى الأعماق، وأصبحت بالنسبة لي قضية، لا أكثر ولا أقل، حالة، جريمة مروعة، ولكن أبداً لم تعد مسألة شخصية. في مرات عديدة كنت أتصوّر ليلى ميتة ليسهل عليّ أمر تقييمها، وذات مرة جعلت نفسي أتصورها، وهي تمتص آخر قطرات اللذة على سريرها، مجرد جثة، كنت قد أقنعت نفسي بأن الوسيلة الوحيدة التي تستطيع أن تنهي علاقتنا هي أن يموت أحدنا، وليس ثمّة فكاك آخر، ولأنه كان من المستحيل أن أتصور نفسي ميتاً فقد اعتدت على تصورها كذلك. كنت أريدها أن تموت ليس لأنني أكرهها ولكن لأنني أحب زوجتي ولأنني لم أكن أريد أن أترك أياً منهما. كنت أتصورها جثة لأن ذلك وحده فقط، في تصوري، كان جديراً بوضع نهاية صحيحة لكل شيء، وحده كان الأمر الذي يجعلني جديراً بالاحتفاظ بزوجتي وبحب ليلى في وقت واحد.

لم أفاجأ إذن، إلا بمقدار ما تفاجأ العرافة بدخول الزبون، ورغم ذلك فقد كان صوتي مبحوحاً تقريباً حين تساءلت، مشدداً على كلماتي:

- ليلى الحايك قتلت؟ كيف؟

- كان يجب أن تسأل متى؟ هل تعطيني سيجارة من فضلك؟

وأخرجت علبتي وناولتها له، فتأملها لحظة، وابتسم ثم أعادها إلي دون أن يأخذ لفافة:

- إن لك طريقة خاصة في فتح العلبة.

- الكل يقولون ذلك.

ودخل إلى الموضوع بثقة الذي اكتشف كل شيء:

- لقد أوقعت علبة، مفتوحة بالطريقة ذاتها، على باب بيتها.

- متى؟

- في نفس الليلة التي قتلت فيها، أمس.

وبدت كلمة قتلت، حين لفظت الآن، جديدة، تماماً ومرعبة كأنني أنا الذي قتلتها. أما هو فقد أدار ظهره، وعندها فقط ارتجفت وعضضت شفتي ومنعت نفسي من البكاء، وحين صار وراء طاولته فتح درجه بهدوء، وتناول علبة سجائر منزوعاً غطاؤها من جانب واحد حتى منتصف طول اللفافات ورماها على الطاولة أمامي كأنه

يدعوني إلى التدخين، كان فيها لفافتان.

- أين كنت في تلك الليلة؟

- أية ليلة؟

- أمس إذا شئت أن أذكرك.

- كنت أشرب قهوة على الشاطئ.

- هل تفكر أن أحداً رآك؟

- كلا.

وأشار بعينيه إلى العلبة وسأل:

- هل هذه العلبة لك؟

- نعم.

- كنت أحسب أنك ستقول لا. هذا هو الخطأ الثاني الذي ترتكبه في أقل من ١٢ ساعة...

وجلس، وبدا لطيفاً من جديد ثم أخذ يفكر باعتناء، وقال كأنه نسي شيئاً هاماً:

-... يا أستاذ صالح.

وتحيّر. كان يتصوّر نفسه أمام قضية خطيرة معقدة أشدّ التعقيد، وها هوذا يصاب بخيبة أمل طاحنة حين لم يأخذ الأمر كله من وقته أكثر من خمس دقائق. كان كمعظم المحققين قليل الثقة

بنفسه إذا ما واجه خصماً ليّناً، يفقد قشرته الصلبة حين يرى نفسه في غير ما حاجة إلى نزال وينقلب إلى شيء هلامي غير محدود ولا حاسم:

- أنت محام قديم، رأيتك هنا تدافع بذكاء عن أكثر من قاتل وتكاد تنجح تقريباً في كل مرة بتخليص رقبته من الحبل، ولكن حين يجيء دورك تسقط علبة سجائرك على باب بيتها، ثم تعترف بأنها لك.

وسألت:

- كيف قتلت؟

وقفز عن كرسيه كأنما لسع. وعلى الرغم من أنه بدا غاضباً حقاً إلا إنه كان بميسوري أن أكتشف في أعماقه فرحة غامضة حين فوجئ بأن المسألة لم تنته بالبساطة التي يتصورها، وأن أمامه لعبة طويلة، وربما معقدة، وفحصني بعينيه الصغيرتين محاولاً الدخول إلى رأسي. ولا شك أنه اكتشف أن بوسعي أن أكون، بسبب خبرتي الطويلة، مجرماً صعباً، أعطي اعترافاً لأبني منه متراساً، وأرشو كلمة كي لا أخسر عشراً.

كان يعرف أنه أمامي أنا، لا يستطيع إلا أن يكون عارياً تماماً، وأنني أعرف، من مقابلات لا حصر لها، أبجدية وسائله جميعاً، ورغم

ذلك فقد كان من الصعب عليه أن لا يمارسها:

- تسألني كيف قتلت؟ أنا الذي أريد أن أسألك.

وعندها وقفت، أطفأت لفافتي واقتربت من الطاولة التي كان ما يزال منحنياً فوقها وقلت بهدوء:

- إذا كنت تريد أن تقول إنني شاركت في قتلها، فوفّر على نفسك هذا الطريق المسدود، سأساعدك قليلاً في اكتشاف الأمر، ولكن قبل أن نبدأ، ضع هذا في رأسك، من الصدغ إلى الصدغ.

وأخذت أقرع الطاولة بسبابتي المثنية مع كل كلمة:

- أنا لم أقتل ليلى الحايك.

واستدرت، وخطوت ولكن صوته أوقفني:

- أنت موقوف يا أستاذ صالح.

ثم أكمل كأنه تذكّر شيئاً:

- ... لو سمحت.

* * *

أمضيت بقية ذلك النهار في غرفة مغلقة تقع على مدخل الممر الذي يقود إلى غرفة المحقق، لقد منعوا عني، بالطبع، كافة

المقابلات، ولم أر إنساناً إلا الذي قدّم لي بتهذيب لا مثيل له وقعتي الغداء والعشاء المتواضعتين، وقد أكلت بشهية طيبة، وعانيت قليلاً من انتهاء الدخان، وكان المقعد الخشبي غير مريح، ثم إن النافذة الصغيرة العالية جعلتني أفقد الإحساس بالزمن، وليس صحيحاً أن الساعة في معصمي تستطيع تمويني بتقدير سليم للوقت. إن قليلاً من الذين لم يسجنوا، لسبب أو لآخر، يعرفون أن تقدير الإنسان للوقت وإحساسه بالزمن لا يتوقفان على الساعة ولكن على الضوء أيضاً، وعلى الحركة، وعلى المواعيد، وعلى نظامه الخاص في تناول وقعاته والذهاب إلى سريره، وحين ينفرد بالساعة فقط يشعر أنه، بشكل ما، مخدوع.

لقد وقفت عند نقطة الزمن هذه لأنها مهمة جداً في قضيتي. فقد كان توقيت الأحداث جميعاً الشاهد الأول ضدي، وحين كنت أستمع إلى مرافعة الاتهام واستجوابات الشهود كان الزمن، الذي لم يكن يعني بالنسبة لي إلا علاقات مع الناس ومع نفسي، قد أضحى بطلاً منفصلاً له شخصيته الخاصة ينازلني هنا وهناك كأنه خصم صعب.

هل الزمن صدفة؟ هذا سؤال لا يعني القضاء، وليس ثمة قانون في تراث الإنسانية يتعامل مع هذه النقطة بقدر ما تسعفني ذاكرتي

من شواهد، ولكن ما أعرفه الآن تماماً هو أن الزمن لم يلعب الدور الرئيسي في القضيةِ قبل توقيفي فقط، ولكن بعده أيضاً. وفي الشهور التي قضيتها سجيناً نشأت علاقة من نوع جديد بيني وبين الزمن، لقد كفّ عن أن يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس ومع نفسي وأضحى خصماً محضاً.

حين تضعون رجلاً في غرفة مغلقة خمسة شهور، بلا أمل تقريباً، فإن الزمن، إذن، لا يستطيع أن يكون بالنسبة له ما هو بالنسبة لجميع الناس. أن تنظر إلى ساعتك فترى أنها الواحدة أمر لا يعني شيئاً. إنه تجريد محض. الواحدة بالنسبة لرجل خارج السجن هي ساعة طويلة، أو قصيرة، هي ساعة قبل الغداء أو ساعتين بعد انتهاء العمل، ولكن ما هي بالنسبة لي أنا؟ لقد تعودت هذا الأمر تعوداً فظاً، وحين كف الزمن عن أن يكون بالنسبة لي علاقة مع الناس ومع نفسي صار الناس - وصارت نفسي أيضاً - أقل أهمية، أستطيع أن أقول إنهما صارا أكثر تجريداً، صارا طرفاً في مسألة حسابية لا تعني أحداً إلا بمقدار ما تعني عملية حسابية، بالأرقام المحضة غير المترجمة إلى مال أو وزن أو مسافة.

لو تركتم وقتاً كافياً لي لكتبت كثيراً عن هذه المسألة، وقد وقفت عندها هنا بصورة عابرة وأخشى أن تكون غامضة أيضاً لأبرّر

لكم صمتي، لأبرّر لكم كل الأمور التي لم تستطيعوا تفسيرها في سلوكي إلى درجة ارتضيتم أن يكون تنفيذ الحكم فيّ أسرع من المعتاد.

◆ ◆ ◆

قبل انصرافه في المساء زارني المحقق، وكان لطيفاً جداً حين أبلغني بأنه لا يستطيع أن يجزم بإدانتي أو ببراءتي أو بموقعي بين الإدانة والبراءة، ولكنه يخشى أن أكون في موقف صعب.

- أنت الآن في أخطر قضية شهدتها طوال خبرتك في المحاماة، تحتاج إلى قدر هائل من اهتمامك واعتنائك، ليس لأنها معقدة فقط، ولكن لأنها تستهدف رأسك، لا رأس موكل غريب.. إنني أنصحك بأن تكون دقيقاً جداً في اختيار أجوبتك أمام هيئة المحققين غداً.

هيئة محققين بهذه السرعة؟ هذا يعني أن الصحافة تضجّ كثيراً، وأن لدى الاتهام ثروة من الأدلة وأن الجريمة بشعة حقاً لتكون قد استقطبت اهتمام الناس.

ليلى الحايك!

وفاحت رائحتها القوية فيما كانت العتمة تنزل من النافذة العالية. لقد كانت صديقة زوجتي منذ أيام الدراسة ولكنهما انقطعتا عن بعضهما بعد التخرّج، وفي السنوات السبع التي انقضت على زواجي لا أذكر أن ديما، زوجتي، قد لفظت اسمها أمامي أو تحدثت عنها، وقد قابلتها لأول مرة في عيد ميلاد زوجتي.

كنّا قد قررنا، ديما وأنا، أن نمضي تلك المناسبة بهدوء: نتعشى في مطعم ثم نذهب فنرقص قليلاً في نادٍ ليلي، وهناك التقت ديما بليلى وكنت أضمّ زوجتي في حلبة الرقص حين أخذت تتبادل الكلام، من فوق كتفي مع امرأة أخرى ورائـي. ثم قدمتها إلي، وقدمت هي زوجها، وحين عدنا إلى طاولتنا اقترح زوجها أن ننضم إلى طاولة واحدة وعلى الرغم من أننا كنا قد اتفقنا على أن نجعل ذلك الاحتفال الصغير منفرداً، قاصراً عليّ وعلى ديما، إلا إن فرحتها بلقاء صديقتها القديمة بعد غياب طويل، وربما توقها إلى معرفة من منّا يكسب أكثر أنا أم زوج ليلى جعلها تقبل العرض بلا تردد.

كان زوج ليلى، سعيد الحايك، رجلاً وسيماً، يحمل وجهاً شاباً لا تستطيع عبره استكشاف عمره، كان قصيراً بعض الشيء ولكنه نحيل إلى درجة تخفي هذا القصر. ومنذ بدأ يتحدث كان من الميسور أن يلاحظ المرء أنه رجل شديد الذكاء، واسع الاطلاع، يجيد الاستماع

إلى أي موضوع والمشاركة فيه، وكان واضحاً أيضاً أنه يحب ليلى بصورة لا تصدق، ويغار عليها بصورة ذكية: فهو يلاحق، دون أن يتوقف عن الاستماع أو الحديث، نظرها أينما تنقّل، ويدرس اهتماماتها بالرجال والأزياء واللوحات في محاولة واضحة لاكتشافها حتى الأعماق.

وكنت أعرف جيداً هذا النوع من الرجال الذي يعاني من شعور غامض بأنه لم يمتلك حبيبته تماماً، بعد. وفي سبيل أن يحقق هذا الهدف المعذب يخوض مغامرة صعبة لاكتشافها كي يوظف هذه الاكتشافات اليومية في عملية تطويق مرهقة، وتلبية كاملة، لكل أشواق المرأة ومطامحها ونزواتها.

وكنت أعرف أيضاً أن هذه معركة خاسرة حتماً، إن العالم الذي يجتذب المرأة ويرويها عالم شاسع وكلما اكتشف الرجل مساحة منه أطلّ منها على مساحة أكبر لم يكتشفها بعد، ويزيد ذلك في شعوره بأنه لم يمتلك المرأة بعد، تماماً. أما المرأة فينتابها شعور مرير بأن اكتشافها بهذه الصورة يفقدها كثيراً من أسرار الأنثى، ويضيع عليها فرصة ممارسة دورها كمعبد غامض ساحر، وهي أمام تقدم الرجل الذكي في مجاهلها تتراجع وتنكمش.

وحين قمت مرة أخرى أرقص مع زوجتي قلت لها:

- إن ليلى الحايك امرأة سهلة.

كانت ليلى نصف جميلة، ولكنها تتوقّد باهتياج مثير وليس بوسع الرجل العاقل أن يمنع نفسه من التفكير بها كعشيقة. ممتلئة بعض الشيء، ذات بشرة صافية شديدة النعومة، تفتح فمها على وسعه حين تضحك وتقذف برأسها إلى الوراء فتبدو، لوهلة، مستلقية فوق وسادة، على ذراع رجل، متراجعة أمام اندفاعه كأنها تتمنع، أو تتحدى، ساخرة، قدرته على امتلاكها.

وقالت لي زوجتي:

- لماذا تعتقد أن ليلى الحايك امرأة سهلة؟

وتلك اللحظة بالذات، فقط، قررت أن أبذل المحاولة، ذلك أنه ليس بوسعي إعطاء جواب آخر، ليس لزوجتي فحسب، ولكن لنفسي أيضاً.

وحين التزمت الصمت سألت زوجتي مرة أخرى:

- هل تعتقد أنها لا تحب سعيد؟

- كلا، إنها تحبه جداً وتريد أن يظلّ يحبها.. لست أدري، ولكن أعتقد أنها، لذلك، امرأة سهلة.

وفغرت ديما فمها، وأبعدتني عنها وتأملتني ساخرة ثم قررت:

- لقد شربت كثيراً.

ولم أكن قد شربت كثيراً حينذاك، ولكنني كنت أمرّ في تلك اللحظات العابرة التي يشعر فيها الإنسان أنه يستطيع، لو بذل قليلاً من الجهد، أن يمتلك العالم، إنها لحظات تشبه أن يكون المرء قد شرب كثيراً، وصار بوسعه أن يصدق أن النظريات التي يحملها حول الأشياء والناس والقيم كاملة في صدقها، وأن ما ينقصها فقط هو أن توضع في مكان تفرخ فيه تجربة ما.

وحين جلسنا قال سعيد باسماً:

- إنني أسمع عنك أنك محامٍ لامع، وأنا في الحقيقة فخور بمعرفتك.

ونظرت ليلى إليّ، ربما لأول مرة ذلك المساء. ودرستني في نظرة واحدة لا تجيدها غير المرأة الحقيقية، وكان من العسير عليّ أن أعرف فيما إذا كنت اجتزت ذلك الامتحان. ومن ناحية أخرى كنت مهتماً في أن أحول بين زوجها وبين اكتشاف أيما شيء، كنت أريد، بشكل ما لست أعرفه، أن تدرسني من وراء ظهره، كي لا تتقاطع نظراتها بعينيه الذكيتين، الشديدتيّ الملاحظة.

ومضى هو، كأنه لم يقل شيئاً بعد:

- أود لو تعطيني غداً نصف ساعة أستشيرك فيها حول مسألة تخص صديقاً.

- أي نصف ساعة تشاؤها غداً.

وحتى تلك اللحظة لم أكن قد عرفت بعد أياً من صنارتينا قد شبكت الأخرى: كنت أريد أن أعرفه، ذلك أنه إذا كان طفل الأرملة أفضل الطرق إليها فإن الزوج هو الطريق الوحيد للزوجة السهلة. أما هو فقد كان يهدف بلا شك إلى ما هو أكثر من استشارة تخصّ صديقاً، فليس من المعقول أن ينتظر رجل أعمال ناجح مثل سعيد الحايك مصادفة في نادٍ ليلي ليهتم بمسألة صديق مزعوم، وسواء أكانت صنارتي هي التي اصطادت صنارته أم العكس، فإن على كل منا، منذ الآن، أن يكون شديد الحذر، فقد كنّا، ببساطة، خصمين صعبين.

وتركته يرقص مع ديما وراقصت ليلى بوقار، وحرصت أن لا أطرح عليها أيما سؤال. أما هي فقد كانت أبسط مما توقعت، وقد سألتني عمّا إذا كنت أعرف حقاً أن ديما رائعة، وأنها كانت أجمل فتيات الصف بلا منافسة، وسألتني عن عملي ومكتبي وسيارتي وعائلتي وكنت أشعر بأنني يجب أن ألبّي شوقها إلى اكتشاف الآخرين، لقد كانت أجوبتي تزرع في رأسها أسئلة جديدة. إنها ترتاح إلى أن تلعب معي لعبة زوجها معها، فإذا استمر ذلك بعض الوقت، فإلى أين سينتهي؟ كنت شبه متأكد من النتيجة. ولكنني تصرفت

كرجل يستعصي على الامتلاك.

وودعناهما على باب النادي، وقلت لزوجتي ونحن نمضي كي أصرف نظرها عن كل شيء:

- إنها سيدة بليدة.

ولكنني في أعماقي كنت متيقناً أنني غرست نفسي في أعماقها.

لقد كانت هذه اللحظة بالذات هي بداية الجريمة التي أودت بحياة ليلى الحايك والتي لم أرتكبها أنا... ورغم ذلك حُكمت بالموت بسببها.

وكانت مسألة واحدة، في تلك اللحظة، تقف نقطة سوداء غامضة في طريق علاقتي بليلى...

زوجها.

ماذا تراه يريد مني؟

ولكن هذا كله سيبدو لكم الآن، أيها السادة، وكأنه خارج الموضوع، وفي الحقيقة أنه ليس كذلك تماماً، إن أية حادثة - حتى لو كانت جريمة قتل بشعة - إنما هي حلقة واحدة في القصة وربما كان أكبر خطأ يرتكبه القانون هو أنه يحاول تشريحها منفصلة قدر الإمكان عن كل شيء آخر. وعندها لا يستطيع أن يكتشف فيها

أكثر مما يستطيع المخبري أن يكتشف من قطعة الجلد، إنساناً. صحيح أن القانون يظل مهتماً في البحث عن الأسباب والقرائن، ولكن اهتمامه هذا يكسب قيمته فقط حين تكون هذه الأسباب والقرائن قريبة بصوره مباشرة للجريمة. إن الجريمة بالنسبة للقضاء هي قصة مسطحة، فيما هي في الحقيقة قصة ذات ثلاثة أبعاد، مثل كل شيء في هذه الحياة. أنتم لا تستطيعون أن تحكموا على هملت، الآن، بالموت، ذلك لأنه استطاع في أربعمئة سنة أن يقنعكم بأن الجريمة التي ارتكبها إنما هي حلقة واحدة من قصة لا يمكن تمزيقها. ولو أحضروا أمامكم رجلاً قتل أباه ليتزوج أمه لشنقتموه دون تردد، ولكنكم ستفكرون ألف مرة قبل أن تلمسوا شعرة من رأس أوديب.

◆ ◆ ◆

زارني سعيد الحايك في مكتبي ظهر اليوم التالي، بعد أن هاتف طالباً مني انتظاره، وحين دخل طلب فوراً أن نمضي فنتناول الغداء في مكان مريح. اعتذر لزوجته وفعلت مثله ثم ذهبنا بسيارتي إلى مطعم أسماك يقع على بعد ثلاثة أميال من المدينة.

وفي الطريق، فيما كنت أقود السيارة بنفسي لأن السائق كان غائباً لسبب لا أذكره، حاول سعيد بطريقة ذكية أن يوحي لي بأنه يحب زوجته حباً عميقاً، وكان ذلك كله تمهيداً لما سيأتي، ويبدو أنه فكر ملياً في طريقة يدخل بها إلى الموضوع، ثم اكتشف أن أبسطها هو الأفضل.

لم نكن قد بدأنا الأكل بعد، حين اعتدل في جلسته ومنح صوته تلك الرنّة التي يعطيها الرجل حين يريد أن يبدو مخلصاً وحاسماً وموجزاً في وقت واحد:

- نحن رجلان عاقلان يا أستاذ صالح، وينبغي أن لا نسيء تقدير ذكاء كلينا. إن المصادفة وحدها هي التي ستجعلنا شركاء في القضية التي سأعرضها عليك.

وكي لا أجيب قدمت له لفافة فأخذها ودقها على الطاولة وابتسم.

- طريقتك غريبة في فتح العلبة، لماذا تفتحها هكذا؟

- كي أظل على معرفة بعدد ما تبقى من سجائري. إنني أدخن كثيراً وأخشى أن أجد نفسي دون لفافة على حين فجأة، فينتابني شعور بأنني أعدو في الشوارع وأمام الناس دون سروال.

- ثم صارت عادة؟

- أجل.

إنه موضوع صعب كما يبدو، ولذلك فهو يحرص على خلق جو من الصداقة الحميمة قبل الشروع في الحديث، وحاولت أن أسهل له مهمته بالصمت، والابتسام مستشعراً قلقاً غامضاً كأنني على أبواب عرض لا يقيم:

- أستاذ صالح.. إنني مثلك أحب زوجتي، ولست أدري كيف تشغلك هذه المسألة، ولكنني أريد أن أسألك، لو كانت زوجتك تمتلك ثروة كبيرة.. فماذا تفعل؟

ولم أكن أتوقع مثل هذا السؤال، لم أكن في الحقيقة قد فكرت به من قبل، وأهم من ذلك لم أكن أعرف الجواب الذي يريد ليتكئ عليه إلى نقطة ثانية.

- إن ليلى هي وحيدة لأب أرمل سيموت في أسبوع، هذا موعد طبي وليس غير ذلك على الإطلاق، وفي أسبوعين فقط سترث ليلى ثروة.

وحين لاحظ دهشتي وضع الأمر في نصابه:

- إنني أحب ليلى، ولست أريد أن أفقدها بأية وسيلة.

ومضى شوطاً آخر:

- لا أريدها أن ترث هذه الثروة. هل تفهمني؟

- أفهمك، خصوصاً إذا أردت أن ترثها بنفسك.

وسحب كرسيه إلى الأمام واتكأ على الطاولة:

- لا تسيء فهمي أرجوك. ولكن معك حق. فأنا الذي أسأت شرح الموضوع برمته. لنضع الأمر كما يلي: أنا أحب ليلى، لا أريد أن ترث ذلك المال كي لا يفسد عليّ كل شيء، ولا أريد أنا أن أرث ذلك المال.

وتبدى لي، تلك اللحظة، أذكى بكثير مما تصورت، وأكثر التصاقاً بتلك الأنانية النبيلة التي تستعصي على الفهم.

- قبل أن يتتزوج والد ليلى أمها كان مغترباً في الأرجنتين، والحقيقة أنه جاء من هناك برأس ماله الذي بنى فوقه ثروته، وقد ماتت والدة ليلى في وقت مبكر، إلا إن الوالد المفجوع لم يتزوج مرة أخرى. وقد أوقف حياته على العناية بابنته التي كانت، حقاً، وحيدته في هذا العالم، وقد أوصى لها، بالطبع، بثروته كلها، وأخشى الآن أن يكون ذلك العجوز الطيب قد ارتكب خطأً لم يتوقعه، فيدمر ابنته وسعادتها من حيث أراد مساعدتها.

قلت له أنني أفهم قلقه، فهبوط ثروه مفاجئة على امرأة هو أمر لا يستطيع أي إنسان أن يضمن نتائجه، ولكنني أفهمته أنني لست أرى أية طريقة لمنع ذلك الإرث عن الابنة، وسنبدو مضحكين

لو أننا بذلنا المحاولة.

- إنني أعرف ذلك كله، وقد فكرت فيه ملياً، إلا إن الأقدار وجدت حلاً ما، هو الذي من أجله طلبت مقابلتك.

وبدأنا نأكل صامتين، ولم أستعجله لأنني كنت أود التفكير بالأمر، إنني لم أواجه قط مثل هذا الموقف، واجهت عشرات من المواقف المضادة، ولكن أبداً لم يجئ إنسان عندي كي أساعده في التخلّص من ثروة.. ثم ماذا يحدث في علاقتي مع ليلى التي كنت أرتبها باعتناء؟ إن شيئاً واحداً هو الأكيد الآن: صنارته هي التي اصطادت صنارتي!!

- لقد استطعت أن أعرف أن والد ليلى حين كان شاباً طائشاً في الأرجنتين، رزق بابن غير شرعي.

وابتسم ليجعلني أفهم أنه هو نفسه يشك في هذه الحقيقة، ثم أكمل مرتاحاً إلى تلك الصفقة الصغيرة في أمانة مثالية:

- ... ومثل كل والد شرقي يريد العودة إلى بلاده أعطى الابن اسماً آخر، وأعطى الأم رشوة صغيرة، وقرّر لكليهما مساعدة دائمة وأنزل الستار بهدوء على ذلك المشهد من المسرحية.

ووضع سكينته وشوكته على حافتي الصحن وأكمل:

- منذ يومين وصلتني رسالة مغفلة، منتزعة من قصاصات

صحف، دون توقيع، تقول إنه لا ينبغي علينا الاستئثار بالإرث وإننا يجب أن نذكر الشاب الذي أمضى حياته محروماً.

ورمى الرسالة أمامي وقال:

- من الواضح أنه يريد رفع الدعوى، وأن هذه الرسالة هي تهديد أولي.. لديه بعض الرسائل من الوالد.. ولست أدري لماذا لم يوقع هذه الرسالة كأنه يريد أن يوحي لي بأن وراء الأمر قوة ما.. على أي حال، لماذا لا نستبق الأحداث؟ لماذا لا تتولى القضية أنت وتدافع عن حقه؟

وأصبت بقليل من الدوار، ولكنني قلت له إن مثل هذه القضية لن تكون الحل، فالقضاء سيبتّ إن عاجلاً أو آجلاً بالأمر.

- ليس تماماً، أنا واثق أن أوراق الصبي ليست كاملة... إنه أمر يحدث دائماً في مثل هذه القضايا، كما تعلم، ولدى ليلى أوراق مضادة.. إن الذي نريده الآن هو أن لا يتوصل القضاء إلى قرار إلا بعد فتره طويلة، أنا واثق أن الشاب الأرجنتيني هو مجرد أفاك، وأنه سيقبل رشوة صغيرة ليسقط دعواه، ولكني لا أريد أن أعرض هذه الرشوه إلا في الوقت المناسب، نريد الآن أن ندفع القضية إلى ممرات طويلة من التعقيد، ولسنا نرغب في أية تسوية إلا بعد فترة طويلة، ربما طويلة جداً.

- لنقل حين أموت أنا، أو حين يحدث شيء غير عادي - وعند ذاك فقط سيخسر الصبي.

وصمت قليلاً وفكّر فيما قاله باعتناء ثم وصل إلى المرحلة الاخيرة:

- إن ذلك كله يحتاج إلى محام لامع، لا تربطه بنا علاقة وثيقة، ويتمتع بأمانة وسمعة تجعلانه يحجم عن استغلال قضية من هذا النوع.

وفوراً وصلت إلى قرار:

- سأطلب منك يا سيد سعيد بضعة وعود، كرجل شريف، قبل أن نبدأ، وفيما عدا ذلك بوسعك أن تعتمد عليّ إذا كان ما ذكرته هو كل شيء.

ووقف ضاحكاً ومدّ يده:

- كنت متأكداً أننا سنتفق يا صالح.

وترك الرسالة الموجزة المغفلة معي، كانت من كلمات مقطوعة من الصحف، تحكي بإيجاز ودون أي إيحاء قصة الإرث وقصة الشاب الأرجنتيني الذي نبع في الوقت المناسب.

◈ ◈ ◈

وفي الأسبوع التالي، استكملنا أوراق القضية: كان ثمّة سلسلة من الوصولات الرسمية أرسلت من والد ليلى إلى سيدة أرجنتينية منذ زمن بعيد، ليس فيها أي ذكر لابن شرعي أو غير شرعي، ثم رسالة عزاء إلى الصبي ليس فيها برهان إلا على شيء واحد هو أن الوالد كان ذات يوم يحب الأم بصورة غامضة فريدة. وكتبت للصبي الذي كان كما قالت الرسالة المغفلة يعرف القصة والذي كانت الفكرة تروقه إلى حد بعيد، وقالت رسالة الصبي أنه تدبر بالإضافة للأوراق أمر شاهدين أو ثلاثة. وكان هذا يكفي الآن لبدء القضية، ولكن الوالد المريض لم يمت، وهكذا لم يكن أمامنا إلا الانتظار. ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة، ماذا كنت أنوي تماماً - كان يخيّل إليّ أنني سأجد طريقة لقلب الموضوع، موضوع ليلى، إلى مصلحتي، ثم إنني كنت أعتبر الأمر برمّته عبارة عن تحدٍّ مهني لا مناص من خوضه.

لقد ضربت الصدفة ضربتها الثانية حين قامت ليلى بزيارة لزوجتي: كان سعيد في واحدة من رحلاته التي لا تنقطع، وعدت أنا

مبكراً للبيت، وأمضينا سهرة عادية، شبه باردة، وحين انتصف الليل طلبت مني ديما إيصال ليلى بسيارتي.

ولم نتبادل إلا حديثاً موجزاً في الطريق، ثم أوقفت سيارتي وأخذت المصعد معها إلى الطابق العاشر، وأمام الباب طلبت مني أن أتناول المفتاح عن الحافة العلوية، حيث تركته الخادمة. كان الباب ذا إطار خشبي بارز، وقد مررت أصابعي في الطرف، فوقه، حتى عثرت على المفتاح فناولته لها، وقبل أن تفتح الباب لاحظت:

- أنت أطول من سعيد، إنه يبدو مضحكاً حين ينطّ ليتناول المفتاح.

وتصافحنا ببرود وعدت إلى البيت.

لقد انزعج سعيد أشدّ الانزعاج حين روت له زوجته ما حدث، واتصل بي خصيصاً ليذكرني بأن علاقتي بهما يجب أن تكون باردة، واقترح أن أمتنع عن القيام بأعمال مهذبة من هذا النوع كي أجنّب زوجته أي شعور بالصداقة تجاهي، وقد رأيت أنه، نظرياً على الأقل، على صواب.

وحين مات والد ليلى تولّى محامي العائلة أمر تصفية الإرث، وفي الوقت المناسب قدمت الاعتراض، فاندفعت القضية إلى أروقة شديدة التعقيد، وبدأت اللعبة المسلية تزيد من علاقتي بسعيد،

الذي كان يروقه أن يمر على مكتبي بعد هبوط الليل، ليتحدث ويشرب ويضع خطط المستقبل.

ولست أذكر الآن بالضبط متى جاءت ليلى أول مرة إلى المكتب مع سعيد. كانت غاضبة ولكنها تركت زوجها يشرح لي موقف العائلة، ويعدّد الإثباتات التي تبرهن أن ذلك الصبي الدعي كاذب ولص، وعرض عليّ في آخر الجلسة مبلغاً من المال كي أخسر القضية أو على الأقل أتخلى عنها.

وكانت ليلى معجبة بموقفه، وقد لاحظتها تتابع جدله مفتونة وفخورة، وانتابني شعور غريب بسعادة غير مفهومة حين خطر على بالي، فجأة، أنني أستطيع تحطيم علاقتهما في دقائق لو نفضت الحقيقة، أمامهما بحذافيرها. ولكن هذا الشعور بالانتصار جعل أمر إعلانه ثانوياً.

وقلت لليلى أنني، بغض النظر عن احترامي لصداقتها مع زوجتي، فإنني لا أستطيع أن أخذل موكلاً استأمنني على ما يعتقد أنه حقه ومصيره معاً.

- إن لدي شيئاً واحداً أستطيع أن أعرضه أمامكما: لن أكون مزوراً، ولن أكمل القضية إذا كانت خارج نطاق العدل والحق.

وقد فوجئت أنا، مثلما فوجئ سعيد، بموافقة ليلى، سعيدة،

على هذا العرض، وفي الحقيقه فقد كانت أكثر سعادة مما توقع كلانا، فنهضت بقفزة مرحة عن مقعدها ومـدّت يدها نحوي وصافحتني:

- أنا أعرف أنك محام شريف، وأقبل وعدك دون تحفظ.

لقد كانت واثقة تماماً من أنه، عاجلاً أو آجلاً، سيثبت حقها. وكان بوسعها، كما يبدو، أن تنتظر مطمئنة إذا كان النزال شريفاً، وقد أعطيتها أنا الكلمة التي كانت تريدها، فلم يعد ثمّة ما تخشاه.

وحين خرجت مع زوجها من المكتب بدت صديقة حميمة تعتقد أن ما يحدث في قاعة المحكمة ليس هو إلا معادلة حسابية أشارك أنا، من طرف آخر، في وضع حلها الصحيح، الذي هو بلا نقاش مصلحتها المحضة.

وقد توقعت أن تزورني منفردة فيما بعد. فقد أضحت الآن مهتمة جداً بتذكيري بوعدي، ليس ذلك فقط، بل كانت تريد أيضاً أن تجعل من صداقتها الحميمة مع زوجتي ومعي في آن واحد الرقيب الساهر الذي يعمل، داخل ضميري، لمصلحتها.

في الأسبوع الذي جاء بعد ذلك قابلتها مراراً في منزلنا، ولكنها كانت توفّر عليّ أمر إيصالها، ولا أذكر أنها تحدثت عن قضية الإرث أبداً، إلا حين جاءت إلى مكتبي بعد ذلك وحدها لترجوني أن لا

أشجع زوجها على القيام بعمل أحمق لمصلحتها، كأن يحاول اغرائي أو إغراء الصبي بمبلغ من المال لنتخلى عن القضية

- أنت تعرف كم يهتم بمصلحتي، ولكنه لا يعرف والدي - أنا التي أعرفه وأعرف أنه لم يرتكب عملاً من هذا النوع - أحياناً ألاحظ أن سعيد يشك في الأمر، وقد يدفعه هذا الشك إلى إغراء الصبي بالمال، أرجوك أن لا تشجعه، ليأخذ العدل مجراه وأنا واثقة من النتيجة.

ووجدتني أقول:

- لو كنت مكانه لاشتريت العالم كله، لك.

وتضرّجت فجأة، ثم ابتسمت وهزّت رأسها كأنها تشكر مجاملة رسمية، ودارت دورة واسعة حول الموضوع لتعود من حيث لا تدري، إلى جانبه الآخر:

- كيف حال ديما؟

إن ذلك يوحي بشيء كثير، كثير جداً. لقد أصابتها كلمتي في قلبها فذكّرتها بزوجتي، لقد اعتبرت كلمتي غزلاً غير شرعي، ربما أرقها، ولكنها لم تستطع أن تقبلها على محمل رسمي وعادي. لقد اعتبرتها - رغم كل شيء - غزلاً لا يمنع شرعيته إلا معرفتها بديما.

كانت ديما بالمصادفة، تقوم بزياره لشقيقتها في بغداد، وبدت

فرصتي الكبرى التي لا يمكن لها أن تعوض.

- إن ديما في بغداد، هل تعرفين؟ حين تكون ديما غائبة أنقطع عادة عن تناول وجبات منظمة.

وصمتت، في حين انفتحت حواس الأنثى الألف فيها على وسعها، كشبكات التقاط هائلة متحفزة للاصطياد. ومضيت:

- لو لم يكن سعيد يكرهني بسبب هذه القضية اللعينة، لدعوت نفسي للعشاء عندكما.

وببطء ولكن بخوف وتردّد، قالت:

- إنه مسافر.

- إذن لماذا لا نتعشّى معاً؟

- سيغضب.

وتنفست الصعداء، وكففت عن السؤال، ذلك أن الموضوع قد انتهى بأسرع مما توقعت، وربما دون أن تتوقع هي - كانت هناء قد غادرت المكتب فلبست معطفي، وحين صرنا على باب المصعد أمسكت يدها وأدخلتها أمامي، وقدت سيارتي فيما كان المطر ينهمر بغزارة إلى مطعم بعيد - لم نتبادل كلمة واحدة، ولكنني أقنعتها بشرب كمية من النبيذ أكثر مما أرادت، وأكلنا بشهية، وحين دعوتها إلى الرقص لم تتردد، ورقصنا بوقار، وفي المرة التالية

ضممتها إلي ففقدت انتظام خطواتها، وقالت فيما كانت قريبة من أذني ومشيرة إلى خطواتنا:

- لقد خرجنا عن القواعد.

وقلت بهدوء:

- إن القواعد الجديدة لا تكتشف إلا بالخروج عن القواعد القديمة.

ودفعتني بعيداً عنها بعض الشيء، ليس كثيراً، وقالت:

- أنت تعرف كم أحب سعيد.

- إنني لا أطلب منك أن تحبيني مثله.

- ماذا إذن؟

- بالنسبة لي؟

- نعم.

وعدت وضممتها إليّ وقلت لها دون أن أتركها تنظر إليّ:

- إنني أريدك فقط.

ولم تقل شيئاً، كانت تفكر ملياً بالأمر، ولكن بقلق غامض، أخذتها إلى الطاولة وشربنا قدحي نبيذ دون مناسبة، وانتهت فجأة إلى قرار.

- كلا يا صالح، إننا نقوم بعمل سيئ.

والتزمت الصمت، كنت حزيناً حقاً، وقد جعلت ذلك يبدو أكثر مما هو في الحقيقة، وأخذت تراقبني بهدوء وما لبثت أن قالت:

- كان يجب أن لا تقول ذلك، على الأقل لم أكن أتوقعه منك أنت.

- أنا آسف إن كنت قد جرحتك، ولكنني أرجو أن تعتبري صفاقتي إطراءً مخلصاً لأنوثتك.. إنني لا أستطيع أن أكون قريباً منك إلى هذا الحد ولا أفكر بأن.. حسناً، أتعتقدين أن الأمر بالنسبة لي هو بسيط إلى هذا الحد؟ ألا تعتقدين أن قوة أكبر مما تظنين هي التي دفعتني نحو امرأة غير زوجتي منذ سبع سنوات، سأعتبر دائماً أنني خسرت القضية الوحيدة التي يهمني أن أربحها.

وتضرجت. هناك طراز من النساء تثيرهن الكلمة العارية وتحطم كل مقاومتهن أكثر مما تستطيع اللمسة أن تفعل، إنهن حين يستمعن إلى الكلمة العارية يعتبرن أن أصعب حواجز العلاقة قد تحطم، بل إن العلاقة العارية ذاتها قد حدثت فعلاً، وأن ليس هناك أي مخرج لإنكارها.

لقد أخذتها إلى السيارة وصعدت معها إلى الطابق العاشر، وأمام الباب وقفت أسألها بنظرات واضحة عن قرارها الأخير، فقالت:

- سأقول لك لا، مرة أخيرة، وأرجو أن لا تشعرك هذه اللا بإهانة

تغير في موقفك من قضية الإرث.

ومددت يدي إلى حافة الباب فتناولت المفتاح وأنا أقول:

- ستربحين القضية أنت، قلت لا أم نعم، لقد اشتهيتك قبلها والآن سأظل أشتهيك إلى الأبد. أن أنام معك، هذه هي القضية الوحيدة التي يسوءني أن أخسرها، أما فيما عدا ذلك...

وفتحت الباب فخطت إلى الداخل مترددة بعض الشيء، ولحقتها دون أن أتوقف عن الكلام، وحين جلست في الصالون أحضرت لي بصمت كأساً من المارتيني، وجلست على المقعد المقابل، وقالت بهدوء:

- الآن أستطيع أن أفهم لماذا تربح قضاياك دائماً.

وابتسمت، ثم ضحكت وهي تدفع رأسها إلى الوراء، فبدت ضجيعة تسخر من قدرة الرجل على امتلاكها، وسألتُ وهي تطوي خجلها في ضحكتها حتى لا يستطيع الرجل أن يميز بينهما:

- هل فكرتِ جيداً؟

وقبلت هذا الحل دون نقاش، لقد رمت المسألة على كتفي واعتبرت نفسها في المكان الأقوى، بالنسبة لها كان القرار أغلب الظن هو مزيج من اشتهاء لا يصد، ومن صفقة قضائية صغيرة أيضاً ومن شعور صاعق أنها أنثى ما تزال تستعصي على الامتلاك من

قبل رجل واحد، وفوق ذلك كله من مصادفة مليئة بالتناقضات والإثارة، ومثل كل مصادفة، فهي مغامرة عابرة لا تترك في حياتها بصمات خطيرة.

لقد تركتني أنظر إلى فخذها وهي تطوي ساقاً على ساق، كنا في الواقع وراء مجرد هذه المرحلة، لقد تحدثنا قبل قليل عن الفراش ولم يعد ثمة أي حرج في الحديث - أو في النظر - عن كل ما يقع قبل ذلك.

وحولتها أصابعي إلى نمرة، وأوقدت قبلي خزان النبيذ قي أعماقها فالتهبت، وقد تم الأمر بلا طقوس، على ذلك المقعد الطويل في غرفة الجلوس، وحين طحنتها اللذة ألقت برأسها إلى الوراء، وتصورتها لوهلة جثة. . وبدا لي ذلك التصور دون ضير، فقد كان ذلك، منذ الآن هو الطريق الوحيد للخروج من حياتها دون أن أفقدها ودون أن أفقد ديما.

وأعطيتها سيجارة فدخنت لأول مرة ودخنت معها بهدوء فيما كانت كفي الأخرى تتحسّس جسدها الدافئ، الناعم، والمستسلم حتى النهاية... وفجأة طلبت مني أن أغادرها بهدوء وأن أتركها حيث هي، وأخذت تنظر إليّ وأنا ألبس ملابسي كأنها هي التي تبقى وأنا الذي أمضي، ومضيت، دون كلمة، ونزلت.

وعاد سعيد مساء اليوم التالي، وقد اتصلت ليلى بي لتقول لي ذلك، كأنها كانت تخشى أن أزورها، وعرفت، بعد أن وضعت الهاتف، أنها تتوقعني دائماً.

ولكن الأمر بالنسبة لها كان أكثر من ذلك، كانت الآن تمتلك شيئاً لا يعرفه سعيد، ولا يمكن أن يعرفه: لقد ارتدت الأنثى فيها إلى مواقعها الأولى الغامضة المليئة بالأسرار والغموض المثير، وصار سعيد بالنسبة لها رجلاً لا يعرفها تماماً، وبالتالي أكثر جدارة بالحب.

كيف يمكن للقانون أن يفهم ذلك؟ كيف يمكن له أن يعرف أن الحب الإنساني لا يعني الانفراد، كيف يمكن أن يدرك أن ما فعلته ليلى لم يكن في الواقع إلا دفاعاً عن أنوثتها أمام الرجل الذي تحب حقاً؟

ولكن الأمر بالنسبة لي كان أكثر بساطة. لقد حاولت أن أقول كيف استطاعت تلك اللحظات العابرة، في النادي الليلي، أن تنمو دون سيطرة من أحد إلى ذلك الحد.

إن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم، أيها السادة ليست القانون، ليست أي نوع من القانون، ولكن النساء. أقول النساء، لا المرأة الواحدة، لأن المرأة الواحدة سرعان ما تضحي عادة، وكي نهز هذه العادة، ونجعل منها شيئاً ممتعاً، فإننا ملزمون بكسرها.

إن ليلى الحايك لم تخن زوجها - ستبدو هذه الجملة مضحكة للوهلة الأولى، ولكن إذا كانت حقاً غير صحيحة فإن علاقة ليلى الحايك بزوجها حقاً علاقة تعسة، وبماذا يمكن أن توصف علاقة يومية بين رجل وامرأة إلا بأنها تعسة إذا كانت قيمتها كلها هي الفراش.

إننا حين نعتاد زوجاتنا وعشيقاتنا، فإن كمية الفراش في حبنا لهن تصبح كمية صغيرة، ونحن حين نذهب إلى الفراش مع امرأة أخرى فإننا لا نعطيها حباً، ولكن نعطي أنفسنا اكتفاء من نوع لم يعد من اليسير الحصول عليه في فراش الزوج والزوجة.

ليلى الحايك لم تحبني، وأنا لم أحبها، وقد ذهبنا إلى الفراش تحت دافع من المصادفة والاشتهاء والتغيير، ونحن لم نستعمل في علاقتنا حصة زوجها منها ولا حصة زوجتي مني، ولكننا استعملنا القوة الفائضة التي أفرزتها المصادفة والشهوة خارج طوق العادة.

إن الحب الذي ينمو بين الرجل وزوجته هو حب، بالطبيعة، يدفع الجنس من مغامرة إلى واجب، ولكن الجنس هو في الأساس مغامرة متوهّجة، ولذلك تضحي أقل أهمية من الحب، ولكنها ضرورية له في وقت واحد.

إن علاقتي بليلى الحايك جعلت من ديما إنسانة أكثر معنى

مما كانت وأقل عادية مما هي. إن حبي لها لم يقل، ولم يزدد بالطبع، ولكنه اختلف، وهذا شيء ضروري إذا أردناه أن يبقى.

إن الزوجة هي قيمة اجتماعية رائعة، ولكن كي تظل أنثى يتوجب علينا أن نعرفها أقل، وكي نجعلها تتوقد يجب ان نحوّلها، كلما مضت للفراش، إلى امرأة أخرى، امرأة ثانية.

هل تفهمون؟

إن هذه المسألة لا علاقة لها بكمية الحب، ولكن بنوعه وبتجدده فقط.

إن الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار، ولكن ذلك القرار لا يعوض قراراً آخر في أعماق الزوج بأن ينام مع امرأة أخرى.

إن كل زوج يطوي نفسه على قرار عميق بأن ينام مع كل نساء العالم إذا استطاع ذلك، ولكن ذلك القرار ينتظر المصادفة كي يصبح واقعاً.

إن الزواج هو مصادفة نعطيها معناها بقرار، ولكن النوم مع امرأة أخرى هو قرار تعطيه المصادفة معناه وواقعه.

ولم تكن علاقتي بليلى إلا مصادفة توّجت قرارين اتخذ كل منهما على انفراد في أعماقي وأعماقها، وربما دون وعي.

إن المصادفة أيها السادة، هي قيمة واقعية في حياتنا، كالقانون

والعدالة والجريمة، وقد جاءت تلك المصادفة كي تعطي ليلى فرصة لإثبات أنوثة مسلوبة هي سلاحها الوحيد في أعماقها أمام زوجها، وجاءت لتعطيني، دون أن أقصد، تجديداً لعلاقتي بزوجتي.

ولكنها فوق ذلك كله جاءت لتلبي حاجة دفينة هي حاجة الرجل إلى المرأة وحاجة المرأة إلى الرجل في لحظة تقع خارج فتور العادة والواجب.

ورغم ذلك فهذا شيء لا يمكن تفسيره بمعادلة حسابية باردة، وأنا أدفع الآن ثمناً عادلاً لهذه المصادفة غير المعترف بها، وقد اكتشفت، أنا الذي عشت سنواتي العشر الأخيرة بين مواد قانون حسابي صارم، أن هذه المصادفة هي قوة مقررة، فوقنا جميعاً لأنها تلبي حاجة في أعماقنا جميعاً، لها فعل الواقع.



لست أذكر أن شيئاً بارزاً حصل بعد ذلك.

لقد مضت القضية تتعقد وتزداد تعقيداً في أروقة القضاء، ولسنا ندري الآن كيف نبع عدد لا يحصى من الشهود. جاؤوا من أعماق الماضي يتحدثون عن والد ليلى الحايك، بصورة متعادلة...

وفي الوقت ذاته لم تنقطع علاقتي بليلى، على الرغم من أنها لم تتطور. لقد تكشفت لي هذه المرأة عن بئر من الاشتهاء لا يمكن سبر غورها. ووجدت، معي، فرصتها التي لا تعوض لتضحي امرأة أخرى تحقق معي في الفراش ما لا تستطيع تحقيقه في أي وقت ولا مع أي إنسان، لقد انتقمت لنفسها من كل واقعها الذي أضحت تعتبره المسؤول الأول عن نوبات فتور كانت تتموج في علاقاتها بزوجها بين الحين والآخر. كانت تتصرف معي كامرأة ساقطة، تحكم الرجل الذي أمامها بكل قوتها وخبرتها، كأنها حين كانت ترمي بنفسها عارية في ذراعي إنما كانت تتلبس شخصية أخرى تماماً، موجودة في أعماقها، ترد بها على ما عرفه الناس عنها من وقار واتزان، لقد اضحيت، بدوري، واحتها الوحيدة داخل ذاتها، وليس خارجها، تعيد معي، في لحظات قليلة خارجة عن منطق حياتها، ترميم أنوثتها أمام الرجل الذي كان، من حيث لا يدري، يحاول تحطيمها.

ولم يكن سعيد الحايك حتى على شك في علاقتنا، ذلك أن ليلى لم تكن تحب رجلاً آخر أمامه، بل كانت تحبه بصورة أكثر عمقاً وتمكناً، ولم تكن ديما تشك أيضاً بأي شيء، لأنني كنت، وما أزال، الرجل الذي يحبها بصورة لا يمكن أن تفتر... لقد كان الخطر الوحيد

الممكن هو فقط في أن تنمو علاقتي بليلى وراء تلك المغامرة المصادفة، أن أضحي بالنسبة لها أكثر من مجرد وسيلة، وأن تضحي بالنسبة إليّ مجرد عادة – أي حب.

سيبدو غريباً عليكم، أيها السادة، أن لا أجد فرقاً بين العادة والحب، ولكن الأمر، لو تفكرتم به قليلاً، هو ذلك.. ولذلك كنت أقول قبل قليل إن الفراش، حين لا يكون عادة، فهو شيء لا علاقة له بالحب، وإن الحب الحقيقي ليس فراشاً فقط.

لقد مرت أيام كثيرة خلال الأسبوعين اللذين سبقا اعتقالي لم أشهد فيها ليلى الحايك، كان سعيد في المدينة وكانت تحرص على أن تقضي كل أوقاتها معه، ولست أذكر الآن أنها زارتني خلال هذين الأسبوعين إلا مرة واحـدة، وقد جاءت برفقته بناءً على نصح المحكمة لهما بأن يحاولا الوصول معي إلى صلح.

لقد جلست هناك، مع زوجها، كأنها لا تعرفني إلا كما يعرف المرء محامي خصمه فقط، وقد وافقت أنا بدوري على صلح، ولكني طلبت لموكلي ثلثي الإرث، وقد فوجئت ليلى، وافتعل سعيد الحايك المفاجأة، ولكنني كنت أعرف أنه كان شديد الرضى، وغضبت ليلى ولكنني شرحت لها أن ليس بوسعي أن أرفض شروط موكلي، سواء اعتقدت بعدالتها أو لا، وأن جلّ الذي أستطيع أن أنصح به هو

متابعة الدعوى في المحكمة.

ولأول مرة ذكرت ليلى شيئاً عن وثيقة تستطيع أن تحسم القضية كلها، وقالت إن تلك الوثيقة أضحت الآن بحوزتها، وأنها أرادت الصلح ليس لأنها تعتقد بصحة ادعاءات الوريث، ولكن لأنها لا ترى خيراً في أن تختصر الوقت، وأن يخرج الشاب الأرجنتيني الذي كان لسبب من الأسباب محط اهتمام والدها بمبلغ ما من الإرث.

ونظرت إلى زوجها أستعين به، إلا إن وجهه ظلّ جامداً، فقلت لليلى أنني ما زلت عند وعدي، وإذا استطاعت وثيقتها أن تحسم الأمر، فعليها أن تقدمها للمحكمة، وأنا أقبل بالنتائج.

وعند ذاك قالت ليلى إن الأمر يحتاج إلى شيء من الوقت، وإنها أخطأت حين اعتقدت أن الشاب الأرجنتيني يستحق العطف، وسترفض الآن أي حل غير ذلك الذي ستقرره المحكمة.

وقال سعيد الحايك شارحاً: لقد حصلت ليلى من حيث لا أدري على وثيقة مهمة، كما تقول، تستطيع حسم القضية، إلا إنها لم ترني الوثيقة حتى الآن، ولم تقل لي كيف حصلت عليها...

وابتسمت ليلى بثقة المرأة التي تحتفظ لنفسها بسرّ رهيب، وأنا الذي أعرف هذه الابتسامة، أعرفها لأنني شريك في واحدة

مثلها، فهل أكون الآن، يا ترى، ضحيتها؟ إن ليلى يروقها أن تكون مطوية على سر، أمام زوجها تحتفظ لنفسها بسري، وأمامي - الآن - تحتفظ بسر هذه الوثيقة الطارئة. لم يكن زوجها أقل حيرة مني، وبدت لي تلك اللحظة مستمتعة حتى الثمالة حين نجحت في وضعنا معاً داخل قفص، كحيوانين حبيسين يجهلان الحقيقة.

وقلت لها محاولاً استدراجها:

- دعيني أرى تلك الوثيقة لأقدر لك قيمتها في دعواك.

وابتسمت، تلك المرأة المتمنعة التي يروقها أن تكون صعبة على الامتلاك:

- لن تلعب هذه اللعبة معي... أنت الخصم الذي يريد لموكله الثلثين، وستخرج من هذه القضية كلها بأيد بيضاء، تصفر.

واستدركت:

- هل اتفقت مع ذلك الأفاك على مبلغ مقطوع أم على نسبة مئوية من الإرث؟

- على نسبة مئوية مما أستطيع تحصيله له.

- أيها المسكين! إذن ستخرج بلا أي قرش.

وتحديتها:

- لا تلعبي على أعصابي، ليس ثمة وثيقة في الأمر..

وهزّت رأسها باسمة:

- سنرى.

وسألت زوجها:

- أتعتقد حقاً يا سيد سعيد أنها تمتلك تلك الوثيقة؟

- لست أدري..

- لو رأيت تلك الوثيقة لصار بمقدورنا أن نصل إلى صلح.

ولكنها نهضت، وحين شاهدت خصرها وردفيها داخل ذلك الثوب الأسود الضيق، وابتسامتها الغامضة، اكتشفت حقاً كم يمكن للمرأة الغامضة أن تكون مثيرة ومشتهاة حتى لو كانت تطوي تحت غموضها وثيقة لا تهم أحداً. إنها تعطي نفسها، دون أن تعي تماماً، تلك الانكماشة الأنثوية الفريدة، التي تجعلها تبدو أبعد من أن تؤخذ، وبالتالى أكثر جاذبية ونداء، وحين كنت أودعهما أمام طاولة السكرتيرة هناء، في الخارج، قال لي سعيد الحايك أنه يعتزم السفر غداً لمدة لا يستطيع معرفتها الآن، ورجاني أن أقدّم النصح لليلى بصفتي خصماً شريفاً، إذا ما احتاجته أثناء غيابه.

وسافر سعيد كما قال، صباح اليوم التالي، صباح اليوم الذي حدثت فيه الجريمة، وطلبت من هناء في الظهيرة أن تصلني بليلى، التي قالت لي أنها تتوقعني هذا المساء، في تمام السابعة.

عند الظهيرة اشتريت زجاجة عطر من النوع الذي تستعمله، ووضعتها في درج مكتبي.

في السادسة، وهو الموعد المحدد لانتهاء العمل في مكتبي، أنهيت أوراقي وغادرت المكتب، وقمت بجولة طويلة في سيارتي، وتذكرت أنني نسيت زجاجة العطر، فعدت إلى المكتب، كان مغلقاً بالطبع، ففتحته، وذهبت إلى غرفتي، وحين كنت أحاول وضع الزجاجة في جيب معطفي الداخلي، دخل البواب، الذي لفت نظره الضوء في غير وقت العمل، وما لبث أن اعتذر، وقبل أن يخرج رآني ألبس قفازي.

نزلت، وقدت سيارتي، وأوقفتها في مكان بعيد، وأخذت المصعد إلى الطابق العاشر.

قرعت الباب مرة ومرتين فلم أسمع جواباً. شعرت بالغيظ، واكتشفت في لحظة واحدة أن كل العالم الذي بنيته في رأسي هو وهم محض، وكي أوضح لليلى أنني جئت، أفرغت علبة سجائري، وكان فيها خمس لفافات، من ثلاث، وحاولت وضعها على حافة الباب كي تلمسها حين تجيء لتأخذ المفتاح، ثم اكتشفت أن ذلك شيء لا يبرر فيما لو شاهدها أي إنسان هناك، فاستعدتها وألقيتها أمام الباب كأنما عرضاً.

وحين أخذت المصعد وخرجت من البناء رأيت أن ما فعلته كان عملاً صبيانياً، وأن زوجها قد يرى العلبة، فعدت أدراجي.

وفيما كنت أنتظر المصعد، تجمع ثلاثة رجال معي بانتظاره، وشعرت بالحرج، ثم إن الأمر كان مجرد وهم، فزوجها سيغيب أسبوعاً على الأقل، فتركت المكان مرة أخرى.

قدت سيارتي على الشاطئ، ولأننى كنت عائداً إلى البيت، فقد قذفت بزجاجة العطر، مغتاظاً وحائراً، إلى البحر، ثم اشتريت من مكان قريب، علبة سجائر أخرى.

كنت مضطرباً وغاضباً حين فتحت الباب، ولم أتناول العشاء، ومضيت صامتاً إلى فراشي، ولم أتبادل أي كلمة مع زوجتي.

وفي التاسعة والنصف صباح اليوم التالى، أوقفت بتهمة قتل ليلى الحايك.

❖ ❖ ❖

أمضيت الليلة الأولى في حياتى مسجوناً في غرفة ضيقة، ليس فيها إلا لوح خشب مرفوع على أربع دعائم، ومغطى بفراش رقيق ومقعد، تجولت من الحائط إلى الحائط واضعاً يدي في جيبي،

محاولاً أن أكتشف مكاني بالضبط، ولم أكن أستشعر قلقاً، ولكن نوعاً من الغضب فقط، وكانت المفاجأة هي التي هزتني وليست التهمة، ثم إنني لم أكن معتاداً النوم مبكراً.

كان المستقبل ما زال، حتى تلك اللحظة، يعني شيئاً، وكنت أقيس وضعي في تلك الغرفة البعيدة عن كل شيء، بالمقارنة مع إطلاق سراحي، الذي كنت متأكداً منه، وكان غريباً حقاً أن أجد نفسى في موقف ليلى تماماً، أعني في طرف مسألة حسابية يقوم شخص ما على الطرف الآخر ولا أعرف من هو، بحلها معي. معركة شريفة بوسعي أن أنتظر مطمئناً نتائجها، فقط لو أعرف بالضبط من هو خصمي.

لقد قررت أن أعترف بعلاقتي غير المشروعة بليلى، هذا شيء لم أكن قد اكتشفت أي طريقة لتجنبه، وبدا لى أنني سأدفع ثمناً غالياً لذلك الاعتراف، وأنني لن أفقد بعده زوجتي فقط، ولكن سمعتي أيضاً، التي تعتبر، في مهنة مثل مهنتي، أهم بكثير من الكفاءة.

ولست أدري متى غفوت، ولكننى أعرف أنني حين فعلت، لم أكن قد توصلت بعد إلى تقويم كامل، وحقيقي لوضعي. فالعزلة، على الرغم من قصرها، وفقدان أي تفاصيل، وعدم معرفتي الصحيحة

بليلى وبزوجها، وبظروف حياتهما، كانت تحول دون اكتشاف موقعي من هذه المسألة.

وقبل الثامنة، أخذت، بحراسة ملفتة للنظر، إلى غرفة المحقق من جديد حيث اصطف ثلاثة رجال أعرف اثنين منهم فقط، بانتظاري.

لقد قدمت القهوة أولاً، وسمح لي بالتدخين، وكان الرجال الثلاثة يبتسمون كلما تلاقت أبصارنا عمداً أو بالمصادفة، وكانت هذه المقدمة معروفة بالنسبة لى، وقديمة جداً، ولكنها مفيدة للطرفين، وأخيراً بدا الرجل الذي لا أعرفه يتحدث وكأنه في سهرة وليس في تحقيق، كان يدخن وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه وراء ظهره، واقفاً بين الفينة والأخرى، ولفافته تتدلى من شفتيه، مضيقاً عينيه ليتجنب دخانها الثقيل، أليفاً وعائلياً ومنطقياً بصورة لا تبدو، من فرط التجارب، إلا مخلصة.

- نحن آسفون جداً يا أستاذ صالح، لقد اضطررنا أن نمنع عنك المقابلات، لقد عاد السيد الحايك من رحلته مساء أمس، وأراد أن يقابلك، وتستطيع أن تفهم لماذا منعناه، إننا لا نشعر بالأسف هنا، ولكن فقط حين منعنا عنك زوجتك.

ونظر إلى المحققين نظرة عابرة، كأنه يستشيرهما في أهلية

هذا المدخل، ثم أكمل:

- جاءت السيدة زوجتك مع الأطفال.

ونظر إلى الأرض وبدا فوراً تعساً:

- كان منظرهم جميعاً محزناً حقاً.

وقلت، كي لا أدعه يكمل هذا الطريق:

- ولكن يا سيدي لا أستطيع أن أرى مبرراً لمنع المقابلات، في هذه المرحلة على الأقل. كنت أود فعلاً مقابلة السيد الحايك، لماذا منعتموه؟

- إنه زوجها كما تعلم، ثم إنه في حالة سيئة، لقد حاول الانتحار بعد سماعه النبأ، ولكنه أنقذ في آخر لحظة..

- وزوجتي؟

- لقد اقتضى استكمال التحقيق هذا الإجراء.

ولم أستطع منع نفسي من العودة إلى الموضوع:

- أخشى أن تكون قد فقدت أعصابها.

- ليس تماماً، إنها واثقة بأن لا علاقة لك بالأمر، حتى إنها كانت تنوي أن تقول إن علبة السجائر ليست لك، ولكنها متألمة لأن الحادث، حتى لو ثبتت براءتك بعده، سيلحق الضرر بعملك، وبسمعة العائلة.

وفوراً قررت أن أنكر علاقتي بليلى، ليس من أجلي، ولكن من أجل زوجتي، لقد دخلت الآن في القضية وصار اعترافي بعلاقتي غير المشروعة بليلى خسارتها أيضاً، وحتى لو ثبتت براءتي المطلقة من الجريمة فإن مثل هذا الاعتراف لن يقضي عليّ وعلى مستقبلى فقط، ولكن على ديما أيضاً، والأطفال، وذلك الحب الغريب، الذي لا يصدق والذي أكنّه لها.

وسألت:

- إن ما يهمني أن لا يكون الحادث أو أنتم، أيها السادة، قد أوحيتم لها بأن علاقة غير مشروعة كانت تربطني بليلى؟

وتبادلوا النظر بصمت، ثم تولى رجل آخر الجواب:

- في الواقع سألناها عما إذا كانت تعتقد بوجود مثل هذه العلاقة، لقد غضبت أشد الغضب، ووجهت لنا بعض الإهانات.

وابتسم متسامحاً، وناول الحديث لجاره:

- وليست لدينا أسباب لمثل هذا الاعتقاد، كل الذين يعرفونكما يستبعدون هذا الاحتمال، حتى زوج ليلى الذي حاولنا إقناعه بهذا، إن سمعتيكما...

وصمت، أو واصل الكلام، لست أذكر الآن، ولكنني كنت قد انتهيت إلى قرار: لن أعترف بعلاقتي بليلى، أولاً لأن تلك العلاقة

ليس لها أدنى ارتباط بالأمر كله، وثانياً لأن ليلى لا يجب أن تدفع ثمن اعترافي الذي لن يحلّ اللغز بأي حال من الأحوال، وثالثاً لأن مثل ذلك الاعتراف سيدمر ديما والأولاد وأنا... وإلى ماذا سيؤدي؟ إنه ليس ورقتي الرابحة في معركة براءتي، فهو يثبت إمكانية مفاجئة لحدوث الجريمة، ولا يثبت عدم علاقتي بتلك الجريمة.

وسأل المحقق الأول الذي كان قد أجرى تحقيق أمس السريع:

- هل نبدأ؟

ولم ينتظر جواباً، فقد جلس وراء مكتبه وثبت نظارتيه وفتح أوراقه:

- ما هي علاقتك بليلى الحايك؟

- إنها صديقة قديمة لزوجتي، تلاقينا مصادفة في ناد ليلي، ولست أذكر الآن كم مرة رأيتها بعد ذلك، لقد زارتني مع زوجها عدة مرات في مكتبي بشأن قضيه إرث ألعب أنا فيها دور وكيل الخصم.

- وماذا كانا يريدان منك؟

- إقناعي بالتنازل عن وكالة الخصم.

- هل عرضا رشوة؟

- الزوج عرض، ولكنني رفضت.

- والزوجة؟

- الزوجة قبلت وعداً مني أن أكون قانونياً تماماً وشريفاً.

- لقد زارتك الزوجة منفردة بعد ذلك - لماذا؟

- كانت تخشى أن يقوم زوجها بإغراء الخصم، وكانت تريدني أن أحول دون ذلك.

- مقابل ماذا؟

- ليس مقابل أي شيء، ولكن التزاماً بالوعد الذي قطعته لها.

- هل كنت واثقاً من حق موكلك في القضية؟

- إن المحاماة لا تتعامل إلا بالوثائق ومواد القانون، وعلى ضوء هذين الأمرين، كان يتوفر احتمال ما.

- ألم تعرض عليك السيده الحايك في أية مرة من المرات أن تتخلّى عن القضية مقابل رشوة؟

- كلا، ولكن في آخر مرة زارتني مع زوجها، كانت تبدو راغبة في المصالحة.

- لماذا؟

- لأنها ملّت متابعة الموضوع، كما أعتقد، ولأنها رأت أن لا مانع من خروج موكلي بحصة صغيرة.

- وهل شجعتها أنت؟

- كلا.

- لماذا؟

- قلت لها إن موكلي في حالة مفاوضات، لن يقبل بغير الثلثين.

- وهل اشترط موكلك فعلاً هذا الشرط؟

- كلا.

- فلماذا إذن عرضته عليها؟

- كنت أريد مصلحة موكلي.

- على الرغم من وعد الشرف الذي منحته لها؟

وصمت وبدأت كتابة مطولة، ثم قدمت لي لفافة، وحين أشعلتها لاحظت أن يدي آخذة في الارتجاف، لأول مرة منذ بدأت تلك القضية، ولا شك أن ثلاثتهم لاحظوا ذلك، فتبادلوا النظر، ثم بدأت الجولة الأخرى :

- حين عرضت على ليلى وزوجها أن الخصم كان يريد الثلثين، هل كنت تعتقد أنهما سيوافقان؟

- كلا.

- إذن لماذا عرضت هذا العرض؟

صمت، مرة أخرى، ثم كتابة، وسؤال آخر:

- هل تعتقد أن ما يتوفر لديك من أوراق ووثائق كان كفيلاً بإنجاح القضية لمصلحة موكلك؟

وفكرت قليلاً ثم قررت:

- كلا.

- ماذا كانت غايتك من مثل هذا العرض؟

صمت، كتابة طويلة، تبادل نظرات، لفافة أخرى أظهرت أننى أطفأت لفافتي بعد رشفتين فقط، ثم نقلة واسعة :

- هل هذه العلبة لك؟

- أجل.

- هل كنت تزور السيدة الحايك تلك الليلة؟

- كنت أحاول زيارتها، لكني لم أجدها.

- قلت أمس أنك كنت تشرب القهوة على الشاطئ؟

- كنت أقصد الفتره التي سبقت زيارتي للسيدة ليلى.

- ولماذا زرت الضحية؟

- لمتابعة الحديث عن الإرث...

- هل طرأ أي جديد على هذه القضية منذ زارتك مع زوجها ليستلزم منك زيارة لها؟

- كانت تحدثت عن وثيقة حاسمة، وكنت أريد تقويمها.

- هل كنت تعرف أن زوجها غائب؟

- نعم.

- ما هو وضعك المادي؟

- إنني أجتاز بعض المصاعب الآن، ولكن هذا شيء عادي وعابر.

ومضت لحظة صمت، ثم قذف المحقق أمامي علبة السجائر وسأل :

- كيف سقطت هذه العلبة منك؟

- لقد رميتها لأنها كانت..

وكنت أريد أن أتابع وأقول لأنها كانت فارغة، إلا إنني لمحت من جانبها المقصوص لفافتين فتوقفت، وفجأة انفتح باب مغلق في جبيني، وبين دفتيه تكشفت لي صحارى مجهولة بلا حدود، مستنقعات من الرمل الشفاف وأنا غارق فيها إلى عنقي - وأخذت الغرفة، والرجال، والأيام الماضية، وكل شيء في هذه الحياة يدور في دوامة بلا قرار - إعصار شيطاني دق نفسه كلولب فولاذي في جمجمتي، وأخذت أسمع صرير زنزانات تمتد إلى النهاية، وزعيقاً وبكاءً وقرع طبولٍ مجهولة، ونباحاً وحشياً، وعويل رياح مجنونة، وإلهاً اسمه المصادفة يقهقه ملء فكيه العاريين...

ووراء المحققين الثلاثة، والقانون والجدار والكلام كله، جلس ذلك الإله على عرش دموي صاخب. كان الآن قد صار خصماً،

وتكشف لي في لحظة كلمح البرق، إنني أنازل شيئاً فوق القانون والمنطق، ولكنه راسخ مثلهما، حقيقي أكثر منهما، لأنه - ببساطة - واقع مثلهما وربما أكثر. إله اسمه المصادفة، ولست أنا الذي يستطيع فك إساري من أظافره الكريهة، ولكن صدفة أخرى فقط.

وفيما كنت أسمع عبر جدار كثيف من الأعاصير، كلاماً غير مفهوم، وأسئلة تعاد وتكرر وتصرخ وتدق على الطاولة، وتنهال على وجهي، كان هرم آخر من الصخب يرتفع بسرعة لا تصدق في أعماقي: عشرات الألوف من العبيد يحملون كالنمل حجارته الدقيقة ويكومونها في صخب وعويل تحت سماء من القهقهات الراعدة، وفي وسط كل شيء كان الشاهد الوحيد صريعاً مضرجاً بالدم في غرفة مغلقة.

وأطبقت شفتي، لأحبس الكلام المجنون، أطبقتهما في وجه كل شيء، تاركاً القضية كلها التي حدثت وأنا مطبق شفتي تكمل رحلتها في عالم يستعصي على الضبط.

وقال المحقق:

- إن الصمت لن يساعد في حل القضية.

وانتظر الجواب، ولكن الإله الجالس وراءه مضى يقهقه، جاعلاً منّا كلينا في تلك الغرفة المغلقة سخرية مضحكة تقع كلها خارج

الموضوع.

أتفهمون أيها السادة؟

إن المعركة لم تكن معكم، ولم تكن مع القانون، وقد اخترت النزال العادل الذي يقع وراء منصاتكم وأقفاص الاتهام، وتركته يحاكمني وحده.

ومضى الرجل أمامي مصراً على معتقده:

- حتى لو صمت، فلدينا كل جوانب الحقيقة، أنت رجل مشهور يا أستاذ صالح، والقضية رهيبة. كثير من الناس شاهدوك تلك الليلة وقد جذبتهم الفضيحة إلى الشهادة من تلقائهم - بعضهم ليساعدوك وبعضهم ليقولوا الحقيقة... ولكن لدينا من كليهما أوراقاً لا يحصيها العد.

وأطبق صمت ثقيل. وتبادل الرجال النظر في حيرة مكتومة.

- لعلك تريد أن تستريح، أو أن تفكر في شيء آخر تقوله، أنت رجل ذكي وشهير وتعرف القانون جيداً، بوسعك أن تكون إذا شئت معيناً للعدالة كي تأخذ مجراها، أو عائقاً صعباً أمامها، ووحدك الذي يقرر.

وقاموا جميعاً وبقيت جالساً، غارقاً في ذلك المدى المجهول الذي لا يستطيع أي رجل يعتقد أن العالم مضبوط في قفص معرفة

أبعاده ومعناه، نحن الآن نلعب لعبة مضحكة، نقيس العالم كله بمسطرة اتفقنا عليها دون مشاورته، نمنح الظواهر كلها أسماءً وأوصافاً دون أن نعرف ما هي، ما هي حقيقتها وحوافزها، ثم نعتقد أن ذلك كله قد مكننا من الحقيقة كلها. نحن أغبياء أيها السادة، شديدو الغرور والصفاقة، ولم أكن لأستطيع أن أقول ذلك كله لكم وأنا الذي أعرف كيف تضحي النصوص في حياة الإنسان إلهاً بدائياً جديداً يفسر كل شيء ويحكم على كل شيء، فآثرت الصمت تاركاً إلهكم القزم الكسيح الذي نصبتموه على قمة هذه الحياة يصارعها وحده.

أما أنا فكنت أعرف أني مثلكم خارج الموضوع كله!

لا.. لم أكن أجهل معنى القرار الذي اتخذته، ولم أكن أحاول - كما قال الادعاء فيما بعد - لعب لعبة ذكية، لقد كنت أدرك معنى قراري ونتائجه إدراكاً كاملاً، بل إنني أجرؤ على القول أني في تلك الحظة على الأقل، كنت أدرك معناه أكثر من أي إنسان آخر.

لقد عشت كل عمري بين مواد القانون.. ليس ذلك فحسب، بل تعرفون جميعاً أنني كنت أجيد استعمالها لخدمة دفاعي في أية قضية.. إن الاعتراف الآن بأنني كنت في أحيان كثيرة أنجح في تبرير وجهة نظري بمواد قانونية وضعت لتبرير وجهة نظر معاكسة

اعتراف لا يضيرني.

ولكن تلك اللحظة بالذات كنت بين فكي كماشة قوية طاحنة... فأنا المتهم، وأنا الذي ينبغي أن يدافع، وبغض النظر عن أن مبدأ الدفاع ذاته في قضية تتعلق بي، ومن هذا النوع، كان غير منطقي، فإنني استطعت منذ البدء أن أشم بوضوح أطراف الفخ الحديدي الذي أطبق عليّ كما يطبق فخ صيد الضباع على كلب طريد في سهوب الجليد.

لقد عرفت تماماً أن لا فرار.. وعرفت أنه سواء أكنت ضحية مجرم تفوق على كل احتياطاتي وأوقعني، أم كنت ضحية شيء لا يعترف به القانون اسمه المصادفة، فإن الهروب من الفخ أضحى مستحيلاً...

ثم ماذا أيضاً؟

لقد كنت أنا جزءاً من الجريمة، رضيت أم أبيت، كنت حجراً في ذلك البناء الدموي، استُخدمت من قِبل قوة مجهولة استخداما بارعاً.. هل كانت حقاً قوة مجهولة؟ ألم أختر بنفسي – لسبب فوق قدرتنا جميعاً – الدخول فيه ولعب دوري الذي انتهى تلك النهاية الفاجعة؟ ألم أخط بنفسي إلى القصة دون أي دافع خارجي، أكان من الممكن أن يتم الأمر على الصورة التي انتهى إليها لو لم أكن

موجوداً، ولو لم أختر ذلك الدخول الغريب في بنيان الجريمة الدموي؟

وعلى أي حال.. كان المحققون قد احتاروا قليلاً أمام صمتي...

ولكن القانون قد وضع لكل حالة علاجها وفقاً لمسطرته المغرورة التي تتصدى لقياس العالم والناس كيفما كانوا وأينما كانوا..

وهكذا قرروا أن يجدوا شخصاً آخر يتحدث عني!



لم يجد أول محام عيّنوه ليدافع عني أي شيء يقوله للمحكمة حين ووجّه بغزارة الدلائل ضدي من ناحية وبصمتي من ناحية أخرى، كان على أي حال محامياً مبتدئاً أراد أن يخطو إلى عالم العمل فوق سمعتي، منتهزاً تلك الفرصة الغريبة التي تعطى باسم القانون لرجل يرى أن مهمته هي البحث عن مخرج لرجل آخر من مأزق يعرف عنه أقل، وما لبث هذا المحامي أن رفض إكمال مهمته.

وحاول محام آخر، لم أكن قد سمعت عنه قبل ذلك اليوم أن يتولى الأمر، وقد صرف ساعة كاملة في زنزانتي يتكلم بطيبة صبورة

عن حق الإنسان في الحياة، وفي الدفاع عن نفسه، وكان طريفاً حين اقترح عليّ، بعد أن أعيته الحيلة أن يسألني أسئلة لا أحتاج في جوابها إلا أن أهزّ رأسي نفياً أو إيجاباً، ولما فشل في هذه اللعبة الطريفة أيضاً أبلغني، وهو غاضب محمر، أنه يقبل التحدي وسيواصل مهمته إلى نهايتها الغامضة.

كنت قد وضعت في زنزانة منفردة، شديدة القذارة ومظلمة بعض الشيء، وما لبثت أن تغيرت حياتي كلية، واستطاع ذلك الشيء الرهيب الذي يعيش فى أعماق كل إنسان، والذي نسميه أهليته للحياة أن يعيد ترتيب القيم والبديهيات في رأسي بصورة تتكيف فيها مع ظروفي الجديدة، وشيئاً فشيئاً تضاءل العالم الخارجي، وكاد يختفي، بكل ما فيه هو الآخر من بديهيات لا يمكن استعمالها في زنزانة.

وقد مضيت صامتاً ذات يوم، بين حارسين، إلى حيث قابلت زوجتي وأطفالي من وراء شِباك حديدية ثقيلة، كانت ديما منهكة وحزينة ومحطمة، وبدا الأطفال مدهوشين قليلاً. وحين تمسّكت بالشبك، قربت ديما شفتيها الباردتين وقبلت أصابعي وأخذت تبكي، ويبدو أنها رفضت أن تتحدث، أو تلفظ أي كلمة، لأنها كما أخمّن، قد تعرضت لضغط طويل من المحققين لحثّها على إقناعي

بالكف عن الصمت، الأمر الذي جعلها تعتقد أن وراء صمتي توجد خطة ما لا تعنيها وليس من اللائق إفسادها.

لقد قاومت، بقوة لم أحتج إلى مثلها طوال حياتي، أن أحكي كلمة لزوجتي أو أن أترك دموعي تسقط أمامها، وفقط حين أخذوني بعيداً عنها أطلقت لعيني العنان.

وكانت المحاولات لحملي على الكلام لا تكاد تنتهي، وأعلن المحققون عجزهم، وكذلك الطبيبان اللذان أُحضرا لفحصي وإقناعي، فيما ازداد إصراري الصامت على أن القضية برمتها لا يمكن أن تشرح خلال كلمات فقط.

لقد قلّبت في رأسـي طـوال فترة وجـودي في السجن كل الاحتمالات التي كان من الممكن أن تطرأ. واكتشفت تماماً أن قصة علاقتي بليلى لا يمكن أن تساعد في تخفيف الاتهامات ضدي، ولا يمكن أن تكون إلا قصة أخرى تضاف إلى الجريمة، كمشهد جانبي يهم الفضوليين، ويعطي للقضية أبعاداً مثيرة، وليس من الممكن أن أشرح للقضاء حقيقة قضية الإرث، فلست أملك أي إثبات لصحة أقوالي، وحتى لو ساعدت تلك الحقيقة على كشف جانب من الموضوع فإنها لا تفسر شيئاً، ثم إنها كافية لتحطيم حياتي، بما يشبه القتل.

لقد صرت قانعاً بأن الذي رتب القصة كلها هو «شيء» أكبر من تسلسل الحوادث المنطقي، وأن البطل الوحيد فيها هو قوة لا يستطيع القانون الاعتقاد بوجودها إلا إذا جاءت لتثبت بطلان شيء حدث وليس حين تكون هي ذاتها وراء شيء يحدث.

وثبتت عزلتي وقيمي الجديدة هذه الاستنتاجات، فإن انقطاعي عن الناس وعن الحياة اليومية التي عشتها ويعيشها الناس جعل المعاني العادية التي نعرفها عن الحياة تتراجع رويداً رويداً وتذوب أمام نمو قيم جديدة.

من نحن، أيها السادة؟ ماذا نفعل؟ ماذا نريد؟ لماذا نحن؟ أسئلة نطرحها دائماً ونحن على قيد الحياة ووسط صخبها، ولكنها أسئلة تتراجع في غمار حركة اليوم والدوران اللانهائي لأيامنا جميعاً، وليس ثمة مناص من مواجهتها حتى الأعماق حين يكون الإنسان منفرداً معها تماماً.

لو كانت براءتي تعني شيئاً لكان من المحتمل أن تتراجع تلك المواجهة الصارمة للأسئلة المقلقة. ولكنني، حتى لو برئت، فسأكون قد دفعت ثمناً غالياً جداً لما هو حقي المحض. إنني ألعب ورقتين خاسرتين، مع قوة مجهولة حكمت عليّ مسبقاً بارتكاب جريمة لم أنفذها.



وحين عقدت الجلسة الأولى كانت القاعة مزدحمة، وسُجلت لي صور لا يحصيها العد، وتلاقت عيناي، حين حدقت إلى الصفوف الأمامية، بعيني زوجتي وسعيد وهناء والمحامي الأشيب ووجوه عديدة، أعرف بعضها ولا أذكر بعضها الآخر.

كانت الاستجوابات دقيقة، وذات إيحاءات ليس بوسع الكثيرين ممن لم يتمرسوا بالمهنة أن يعرفوا أين ستوضع في هيكل الاتهام، ولكنني كنت أعرف.

لقد استُدعي سعيد في البدء، وكما توقعت فإنه لم يشر إلى قضية الإرث، ولكن شهادته كانت على أي حال جيدة: فقد رفض الاحتمال القائل بوجود علاقة بيني وبين زوجته، ليس بسبب ثقته بليلى فقط، ولكن أيضاً لثقته بي أنا أيضاً، ومضت الأسئلة سريعة، وفي مكانها:

- أين كنت يوم وقعت الجريمة؟

- في الأرجنتين.

- لماذا؟

- كنت أحاول الاتصال بخصم المرحومة في قضية الإرث.

- لماذا؟

- أردت الوصول إلى تسوية.

- وهل توصلت؟

- نعم، قبل الصبي عشر الإرث ليسقط الدعوى.

- ولماذا اتصلت بالصبي وليس بالمتهم؟

- لأن السيد صالح كان قد طلب لموكله ثلثي الإرث.

- هل كانت زوجتك على علم برحلتك إلى الأرجنتين؟

- أجل، وإن كانت غير واثقة من نجاحها.

- هل كانت زوجتك تحاول إيجاد حل وسط مع خصمها؟

- كانت ترفض في البدء، ولكنها أخيراً قبلت.

- لماذا قبلت؟

- لقد اعتقدت أن والدها، لسبب من الأسباب، كان مهتماً بأم الصبي، رغم أنها كانت متأكدة من أنه ليس ابنه، ولم تر بالتالي مانعاً من مساعدته.

- ولماذا لم تطرأ لها هذه الفكرة منذ البدء؟

- لقد قررت فجأة، قبل يوم فقط من سفري، أن تنتهي من القضية بطريقة خاصة، وأقنعتني بأنها ليست بحاجة إلى إرث

والدها بسبب وضعنا المادي، وأنها تنوي أن تخصصه لبناء مدرسة لأيتام أهل القرية التي جاء منها والدها ولفقرائها، كانت تقول لي أنها تمتلك وثيقة حاسمة، وأنها تستطيع أن تنهي القضية لحظة تشاء، ولكنها لم تمانع في محاولة تسوية سريعة.

- وماذا تنوي أن تفعل بالإرث الآن؟

- بالطبع تحقيق ما أرادت، وقد استكملنا كل شيء في الحقيقة.

- أي أنك لم تنل شيئاً من ذلك الإرث؟

- كلا.

- بمن تشك؟

- لا أحد، كانت امرأة بلا أي عدو.

- هل تشك بالمتهم؟

- إطلاقاً كلا.

- إذن لماذا تعتقد أنه زارها أثناء فترة غيابك؟

- لقد كان صديقاً، وزوجته صديقة لزوجتي، ولست أدري كيف ولماذا قام بالزيارة، ولكنني أعتقد أنه قام بها ضمن هذه الحدود، ولسبب يتعلق بها.

- هل تعرض البيت إلى سرقة؟

- بعض المجوهرات فقط.

وكانت ثمة أسئلة أخرى عديدة لم أعد أذكرها الآن. وحين غادر سعيد منصّة الشهادة هزّ رأسه مواسياً.

لقد بكت زوجتي، على منصة الشهادة، أكثر مما تحدثت، روت قصة تعارفنا مع ليلى وزوجها، وأسقطت حديثي عن ليلى، واكتفت بالتأكيد على أنني قلت لها بأن ليلى سيدة بليدة، وذكرت أن ليلى قالت لها بأنني تصرفت معها يوم أوصلتها إلى بيتها كتلميذ مدرسة يوصل خالته إلى كوخها، وروت لها كيف أنني تضرجت خجلاً حين أطرت طول قامتي بعد أن ناولتها مفتاح المنزل من فوق الباب، وأنني حين راقصتها كنت في منتهى الحرج والوقار. ورفضت ديما أي حديث عن علاقة غير شرعية بيني وبين ليلى، ولكنها لم تستطع أن تفسر زيارتي الأخيره لها.

وجاء دور هناء، فتحدثت عن هاتف طلبته لي ظهر اليوم الذي حدثت فيه الجريمة، ولكنها قالت أنها لا تعرف ماذا دار فيه من حديث مع ليلى، وذكرت أن عدة مكالمات هاتفية كانت تحدث بيننا، ولكنها لا تعرف طبيعتها، ثم روت تفاصيل عن حسن سلوكي وسمعتي، ونفت أن يكون هناك أي احتمال بعلاقات أو أعمال غير مشروعة يمكن أن أقوم بها.

وتحدث رجل عن قصة المصعد يوم الجريمة، وقال إنني كنت

أبدو مضطرباً، ولكن مظهرى لم يكن يدل على أي عراك، وإنني لفت نظرهم فقط حين غيرت رأيى وعدت أدراجي دون أن آخذ المصعد.

وقال بواب العمارة إنني لم أوقف سيارتي أمام البناء بالرغم من وجود متسع، وشهد حارس أنني كنت قد أوقفت سيارتي على بعد خمس دقائق مشي من مكان البناء الذي تسكنه ليلى.

وشهد بواب العماره التي يقع فيها مكتبي بأنني رجل مستقيم، وروى أنه في ليلة الجريمة شاهد ضوءاً في مكتبي، وحين دخل رآني أضع شيئاً متطاولاً في جيب معطفي الداخلي، ولكنه لا يعرف ما هو، وحين سئل عما إذا كان يعتقد أنه سلاح قال أنه لا يستطيع أن يجزم، وسئل عما إذا كان يشبه المسدس أم السكين أم البلطة، فقال إنه أقرب إلى السكين، وجاء احتجاج الدفاع على هذا السؤال متأخراً.

ثم سُئل إن كان قد لاحظ شيئاً آخر، فقال أنه رآني ألبس قفازاتي.

وقال رجل لا أعرفه أنه شهدني أنزل من سيارتي على شاطئ البحر قرب دكانه فأقذف شيئاً هناك ثم اتجه نحوه فأشترى علبة سجائر، وقال أنه فيما كان يعيد إليّ بقية النقود لفتت نظره الطريقة الغريبة التي أفتح فيها علبة السجائر، وأنه حين قرأ عن الجريمة في

الصحف، وخصوصاً عن قصة العلبة، رأى أن شهادته قد تفيد العدالة.

وقال إن ما رميته في البحر كان رزمة متطاولة لم يستطع أن يتبينها بوضوح، ولكنه نفى أن يكون قد لاحظ على مظهري أي أثر لعراك أو تصرف غير طبيعي.

وجاء شهود آخرون تحدثوا بإسهاب عن فضائل ليلى الحايك، وبعضهم تحدث عني بعطف ولم يوفر مديحاً. وتحدث آخرون عن استقامة سعيد الحايك.

وحين كانت كل هذه الأصوات تدور في قاعة المحكمة، تصطدم بالجدران وتعود فتنقض عليّ بلا هوادة كنت - خارج كل شيء - أجمع الدلائل الصغيره التي جاء بها الشهود جميعاً وأجد في ربطها معاً قصة مثيرة قد يحسن الادعاء استعمالها ضدي إذا ما صاغها بإحكام.

ولكن هذه الحقيقة كنت أعرفها منذ البدء.

بل كنت أحسّ بأنني لو كنت مكانه لما ترددت لحظة في صياغة قصة جريمة مثيرة قائمة على كل ما هو غير إنساني وغير شريف... حافلة بكل ما في هذا العالم من اندفاعات حيوانية ووحشية غير مسؤولة، ولكنني - فيما بعد - وكما سترون - فوجئت بما هو أكثر من هذا، فقد استطاع الادعاء أن يروي قصة تكاد تكون

حقيقية تماماً!

وصمتت القاعة فجأة، واتجه القاضي إليّ، قافزاً فوق التقاليد والعرف، ربما لشعوره بأن صمتي - أيضاً - هو قفز فوق التقاليد والعرف.

كان في موقف لا يحسد عليه على الإطـلاق... وقد اجتهد اجتهاداً صائباً كما يبدو، فقرر أن يبدأ بنفسه توجيه الأسئلة إلي، غير عابئ بصمتي، لمجرد أن يكون، في هذا التصرف، قد أدى واجبه وأراح ضميره.

لقد سألني عن اسمي وترك فقرة صمت صغيرة متوقعاً تماماً أن لا أجيب، ولكنه عاد فسألني عن عمري وكأنني أجبت عن سؤاله الأول، وترك فقرة صامتة، وسأل عن مهنتي ومحل إقامتي، وكنا نبدو ونحن ننظر إلى بعضنا مضحكين للغاية.. كمنظر مبالغ فيه في قصة وهمية!

وخلع نظارتيه ووضعهما أمامه وشبك كفيه ثم استعرض الحضور والمحامين والادعاء كأنه يستشيرهم في حل... وعاد فنظر إليّ مباشره فبدا أكثر صرامة وحسماً، وقال بصوت هادئ:

- إن صمتك - كما لا شك تعلم - لن يوقف العدالة عن مواصلة مهمتها... وأنت تعرف أنه ليس في النية تعمد ظلمك، ولكن صمتك

قد يؤدي إلى ظلمك من حيث لا ندري.

وانتظر هنيهة ثم أكمل:

- لقد استمعت إلى شهادات عدد من الأشخاص... أنا آسف أننا سنضطر إلى ممارسة إجراءات خاصة معك في هذه القاعة التي عرف عنها تمسكها الصارم بالقانون وإجراءاته، ولذلك سمحت لنفسي أن أخاطبك بهذه الصوره وبهذا الأسلوب.. إنني أعلن لك أن المحكمة ترغب حقاً في الاستماع إلى اعتراضاتك على شهادات الأشخاص الذين استمعت إليهم..

وصمت محدقاً إليّ بعناية كأنه ينتظر المعجزة، ولما يئس عاد فلجأ إلى تحديد أكثر:

- هل تعتقد أن الشهادات، أو بعضها كان كذباً؟

وانتظر وسط صمت جنائزي مطبق صوتي الذي لم يسمعه... ولكنني في أعماقي أجبت: كلا.. لقد كانت الشهادات صحيحة.

وعاد فسأل بعد أن ترك فرصة كافية لم يسمع فيها جواباً:

- هل أنت الذي قتلت ليلى الحايك؟

وأجبت في أعماقي: كلا.

- هل تشك في أحد قام بارتكاب الجريمة؟

وأجبت لذات نفسي: كلا.

- هل كنت في بيت السيدة الحايك ليلة الجريمة؟ هل شاهدك البواب تضع شيئاً متطاولاً في جيب معطفك؟ هل رميت هذا الشيء المتطاول في البحر؟

قلت في نفسي: زجاجة عطر أيها السادة! وخيّل إلي أنه لو كان صوتي أكثر علواً لانهارت عليّ في كل أطـراف الدنيا قهقهات السخرية... ولكنها زجاجة عطر أيها السادة!

نعم - قلت في نفسي - زرت ليلى الحايك. نعم، هذه علبة سجايري.. نعم رآني البواب بعد الدوام ألبس قفازي وأضع شيئاً متطاولاً في جيب معطفي، نعم، حاولت الصعود إلى بيت ليلى مرة أخرى. نعم طالبت بثلثي الإرث للوريث الأرجنتيني. نعم. نعم. نعم.

ولكن الصمت كان كل شيء!

وسمعت القاضي يقول:

- هل ترغب في أن تقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق؟

وأجبت - في أعماقي - من الذي يعرف الحق كل الحق ولا شيء غير الحق؟ أنا نفسي لا أعرف حتى حصتي من الحق، فكيف أستطيع أن أعرفه كله؟"

ونفد صبر القاضي فجأة - رغم أنه كان منذ البدء يتوقع ذلك - واجتاحت الحضور موجة من الهمهمة، ونظرت إلى زوجتي فإذا

بعينيها تلمعان بالدمع الصامت، وصاح صوت من الصفوف: مجرم. فوجد القاضي في ذلك الصوت فرصة ليعبر عن نفاد صبره. فطلب من الرجل الذي أطلق الهتاف أن يخرج من القاعة، ونظرت إليه رجلاً صغيراً مسناً في المقاعد الخلفية يمضي إلى الخارج بهدوء وكان قوة ما أرسلته خصيصاً ليقول ذلك ويخرج.

ووقف القاضي وأعلن رفع الجلسة، إلا إنه طلب مني أن أفكر أكثر في الأمر..

ومرّ المدعي العام قرب القفص فمال عليّ وهمس:

- ستذهب إلى المشنقة يا أستاذ صالح... صامتاً... أم صائحاً...

وفي الجلسة التالية جاء المدعي العام وبسط القصة من أولها فدفع القضية - التي كانت حتى تلك اللحظة مسربلة بالغموض - تحت ضوء كاشف.

وفي الحقيقة - لو وضعت نفسي خارج الأمر كله - فإنه فعل ذلك ببراعة، وكانت الاستنتاجات كلها مربوطة بدقة في الدلائل... لم يغامر كثيراً، فقد كان يدرك حساسية الموقف تماماً، واستطاع استخدام هذه الحساسية في سبيل وضع قصة أقل تطرفاً مما لو كانت القضية عادية.

إنني أتساءل ماذا تراه يشعر لو أنه اكتشف فجأة أن الدلائل

التي استخدمها لبناء قصته هي في ألاساس دلائل قصه أخرى مغايرة تماماً، هل تراه يترك مهنته؟ إنني أستبعد ذلك تماماً لأنه بدا لي وكأنه يؤمن في أعماقه أن الدلائل والإثباتات هي مواد خام من حقه أن يعجنها ويصنع منها الهيكل الذي يريد.

إن كون الدلائل والإثباتات والقرائن حقائق قائمة بذاتها، لا تحتمل وجهين إلا إذا غامرنا بذلك مغامرة غير مأمونة فكرة بعيدة جداً عن مهمته ومهنته.

وعلى أي حال دعونا نلقي نظرة على الهيكل الذي بناه الاتهام من المواد الخام التي جمعها بعناية ليخرج منها بقصة للجريمة...

إنني، أضع في قلب هذه الأوراق كلها، نسخة عن مرافعة الاتهام، كي تكتمل الصورة أمامكم جميعاً، وسوف أشطب المقاطع المتعلقة بالقانون ومواده من تلك المرافعة، كي تصبح الموازنة عادلة، وعلى أي حال فأنتم تعرفون تلك المواد. ولا داعي لتكرارها، ثم إن الذي يهمنا منذ البدء كان ما حدث، وليس نسبة إلى قوانين.

«طبق الأصل».

لقد شاهدنا كثيراً في هذه القاعة، محاولات لتجنب حكم العدالة. قبل أسبوعين فقط قام شخص تعرفونه جميعاً بادعاء الجنون كي يهرب نفسه من جريمة بشعة ارتكبها ضد أقرب الناس

إلى الإنسان - ضد الأم.

هناك متهمون لا يحصيهم العد ادّعوا الجنون، كذبوا، أصيبوا بالصرع، افتعلوا المرض، مثلوا محاولة الانتحار، ولكنهم جميعاً ما لبثوا أن واجهوا العدالة التي اعتقدوا أن بوسعهم الهروب منها.

لو سمحتم لي فإني سأقف أمام هذه الظاهرة قليلاً: لماذا يدعي المتهم الجنون، أو يفتعل الصرع، أو يقوم بأية محاولة من هذا النوع حين يقف أمام العدالة وجهاً لوجه؟

إن الجواب المعروف بسيط جداً: فالمتهم يحاول الهروب من العقاب بصورة يائسة، ولكنني أعتقد أن الأمر هو أيضاً أكثر من ذلك، إنه اعتراف علني بارتكاب الجرم، فليس ثمة مبرر لأي من تلك التصرفات المفتعلة لو كان المتهم أمام ضميره، على الأقل، متأكداً من نظافة يديه.

لقد كنت دائماً أعتقد أن المتهم الذي يواجه المحكمة بشجاعة هو أقرب إلى أن يكون بريئاً من أولئك الذين يحاولون، في سبيل الهروب من عمل ارتكبوه، أن يظهروا للناس أنهم يفقدون أهم ما يفتخر به الإنسان، وهو العقل.

لماذا يضحي الإنسان بسمعته العقلية إلا إذا كان بذلك يحاول الدفاع عن شيء أهم؟ وكيف يمكن أن يدافع إذا لم يكن عاقلاً، إننا

بذلك ننتهي إلى معادلة بديهية: إنه يبرر بالجنون جريمة لا يقبلها العقل، أي أنه يعترف بها.

نحن الآن نواجه حالة أخرى، تختلف شكلاً، ولكنها تنتسب بالأصل إلى مجموعة الظواهر التي عددتها، لماذا يصمت المتهم أمام الاتهام، لماذا يتخلى عن حق الإنسان الأول في الدفاع عن نفسه إلا إذا كان شاعراً بأن ليس ثمة ما يقال أمام واحدة من أبشع الجرائم؟

إنه يحاول بذلك أن يحرج القضاء، ويضع العدالة في مأزق.. ولكنني أعترف لكم أنني شديد الحيرة أمام عمل من هذا النوع يقوم به رجل كان متضلعاً بالقانون.

ربما كان يعتقد أن الدلائل ستكون أقل، ولو كان هذا الاعتقاد صحيحاً إذن لوضعنا فعلاً في مأزق، ولكن الجريمة الكاملة، أيها السادة، لم تكن يوماً حقيقة يمكن ممارستها.

إن تفسيري الوحيد هو أن المتهم، الذي سمعتم ها هنا شهادات لا تحصى بحسن سلوكه ويقظة ضميره، قد شعر أنه قام في لحظة حمقاء بجريمة بشعة، وأنه يعترف بها بالطريقة الفخورة التي يعتقد أنها تليق برجل شهير مثله، إن كثيراً من الرجال الشرفاء يعترفون، أحياناً، بأخطائهم علناً، ولكنهم يعترفون بها دوماً بينهم

وبين أنفسهم، إنني لا استطيع أن أرى في صمت المتهم إلا اعترافاً شريفاً لنفسه، ولكن العدالة أيضاً تطالب بحصتها، وإذا كان هو قد اختار الصمت، فلماذا لا تتولى العدالة الكلام؟

ما الذي حدث؟ إذا كان لا بد لنا أن نروي القصة كلها على ضوء الوثائق وكلام الشهود وجمع الواحد والواحد؟

السيد سعيد الحايك رجل أعمال ثري، يعيش حياة سعيدة مع زوجة رائعة الجمال من عائلة عصامية مات آخر رجالها في أول يوم بدأت فيها القصة التعسة، وأورث ابنته الوحيدة ثروة طائلة.

وحين كان الوالد الشيخ على آخر رمق استطاع المتهم أن يعرف القصة بأكملها، وحتى قبل أن يموت الشيخ كان الحديث عن ثروته يملأ المدينة كما تذكرون، ولا شك أن المتهم فكر في الأمر ملياً، ولدينا ما يثبت أنه قام بأول اتصال مع شاب أرجنتيني أفاك قبل أسبوعين من وفاة الأب، وعلينا أن نفترض بالمتهم إدراكه للقانون ومعرفته بخطر مغامرة من هذا النوع، وهذا هو الذي يفسر الاتصال الغامض، الذي حدث بالشاب الأرجنتيني بواسطة رسالة مقصوصة من كلمات الصحف مغفلة التوقيع تلفت نظره إلى قضية إرث وهو إثبات تكرس فيما بعد برسالة موقعة من المتهم للشاب، بعد انتهاء الاتصالات الأولية، موجودة في ملف القضية وفيها كلمة واضحة

حول «اتصالات سابقة».

لقد تسلم السيد سعيد الحايك رسالة مماثلة لتلك التي تسلمها الشاب الأرجنتيني. يجب أن نلاحظ، أيها السادة، أن هذه المدينة كانت مصدر الرسالتين ولم يكن المصدر من الأرجنتين أو أية بلدة أخرى في العالم، الرسالتان صدرتا من هنا، أي أن الذي كتبهما - المجرم الأول - من هنا.

لماذا أرسل المتهم رسالتين، واحدة لكل طرف، في دعوى لم تكن قد ولدت بعد، هذا سؤال مهم جداً ومعقد أيضاً، ولكنه أساسي.

لقد كانت الرسالتان محاولة أولى لخلق جو القضية، لم يكن المتهم يعتقد أنه سيتعرف عن طريق المصادفة بعائلة الحايك بعد أيام من إرساله للرسالتين، ويبدو أن إرساله رسالة إلى عائلة الحايك كانت مقدمة لا بد منها لإقناع الشاب الأرجنتيني بجدية المسألة - سنلاحظ هنا جملة ذات إيحاء كبير وردت في الرسالة التي أرسلت إلى الوريث المزعوم، تقول تلك الجملة: لقد أبلغت عائلة الحايك بالقضية، سننتظر ردود فعلها، لا تتحرك قبل اتصال آخر.

فما الذي كان يتوقعه المتهم من عائلة الحايك؟ بكل بساطة لم يكن يتوقع شيئاً، فعائلة الحايك كانت متأكدة من زيف الوريث، وكان المتهم يعرف هذه الحقيقة تماماً وكل الذي أراده هو وضع

الوريث المزعوم في جو القضية تمهيداً لاتصال آخر معه يحدث بعد وفاة الأب، الذي كان يعاني آنذاك من غيبوبة عميقة متصلة استحالت معها محاولة تسجيل رأيه في هذه القضية، على الرغم من المحاولة التي بذلها سعيد الحايك.

ما لم يتوقعه المتهم أن يتعرف إلى عائلة الحايك قبل بدء القضية، ولكن المصادفات تدخل هنا، فإذا بسعيد الحايك يطلعه على ما اعتقد أنه لا يعرفه، وقد ذكر السيد الحايك في شهاداته أنه هو الذي طالب المتهم بتولي القضية عن الخصم، لأنه كان يثق بما اعتقد أنه نزاهته، وحسب أن محامياً كبيراً مثله، له سمعة مرموقة، لن يلعب لعبة التزوير والمساومة والرشوة.

أنتم تعرفون أيها السادة أن قضية مثل قضية الإرث هذه تكون عادة مجالاً سهلاً للتزوير، بوسع محام لا يحترم مهنته أن يستجلب عشرين شاهداً بالرشوة يقسمون أن المرحوم قال لهم قبل عشرين سنة إن له ابناً غير شرعي في الأرجنتين، ونحن نفهم خشية سعيد الحايك من نهاية مثل هذه، ونفهم لماذا حرص على أن يدفع المتهم لتسلم قضية الخصم ظاناً عن حسن نية وطيبة قلب أنه سيضع القضية في أيد أمينة.

وقد وجد المتهم هذه المناسبة فرصة نادرة لإكمال خطته، ولو

لم تحدث لكان على أي حال سيتولى قضية الوريث الذي كان ينتظر «اتصالاً آخر» كما وعدته الرسالة المغفلة التي توقعها. الآن سنحت للمتهم فرصة أن يبدو شريفاً حتى أمام الخصم، الأمر الذي يسهل عليه تنفيذ مهمته، وقد اتصل - كما كان متوقعاً - بالشاب الأرجنتيني وذكر في رسالته كلمة لا يعرف سعيد الحايك معناها، ولكننا نعرف هذا المعنى الآن - كلمة تقول «بناء على اتصالات سابقة».

لقد قدم المتهم القضية بسرعة كبيرة، إنني أتساءل أمام المحكمة إن كانت كل الأوراق التي قدمها بعد وفاة والد ليلى قد جمعت بهذه السرعة بمجرد المصادفة... لدينا قناعة بأن هذه الأوراق كانت معدة منذ زمن بعيد.

لقد وصلت أوراق ذات أهمية كبرى إلى المتهم، من أين؟ إنه لا يجيب على السؤال، سعيد الحايك يقول إن المتهم ذكر أمامه مرة أنه تلقى تلك الأوراق بالبريد المغفل.. يجب أن نكون أغبياء، أيها السادة، لنصدق هذا الادعاء، الشاب الأرجنتيني لا يعرف شيئاً عن هذه الأوراق... أليس ذلك برهاناً على أن هذه الأوراق المعدة كانت في حوزة المتهم منذ زمن بعيد، وأنه أبرزها في الوقت المناسب؟

ونحن الآن نتساءل عما إذا كان لقاء المتهم بسعيد الحايك لأول

مرة هو مصادفة حقاً.. أنا آسف أنني لا أستطع إثبات ذلك بالبراهين، ولكن سأحتفظ لنفسي بالشك في هذه المصادفة الغريبة..

هل كان المتهم يريد التعرف إلى عائلة الحايك؟ هل كان تعرفه بهم مصادفة أم خطة وهو الذي لا بد أن يكون على علم بصداقة قديمة بين زوجته وزوجة سعيد الحايك؟

لماذا أعتقد أنه كان يريد التعرف بعائلة الحايك؟ سأسمح لنفسي أن ألجأ إلى افتراض، بالرغم من أني درست أمامكم ها هنا الاحتمال الآخر، الاحتمال الذي يقول بأن تعرفه بآل الحايك كان مصادفة محضة.. لقد كان يريد التعرف بعائلة الحايك ليرتب وضعاً يستطيع بموجبه أن يلعب دور المساوم وراء ستار من الصداقة الشخصية. وسنرى أن ما حدث فيما بعد يجبرنا على عدم إسقاط هذا الاحتمال نهائياً - لقد جرت المساومة كلها وراء ذلك الستار من العلاقة الشخصية.. هذا أمر سترونه بأنفسكم الآن.

الآن، ما هي قصة ذلك الشاب الأرجنتيني الذي بادر إلى رفع دعوى يطالب بحقه في إرث الرجل الذي مات مدعياً أنه ابنه؟

حين ذهب محجوب السيد، والد المغدورة ليلى، إلى الأرجنتين قبل نصف قرن تقريباً كان مجرّد فلاح مغامر لا يعرف أحداً – وقد وجد في بيت سيدة أرجنتينية في مقتبل العمر، أرملة ووحيدة،

ملجأً أمضى فيه سنواته الأولى الصعبة - وقد أشرفت تلك السيدة الفقيرة النبيلة على الشاب الشرقي الحائر إلى درجة لم ينسها محجوب رغم كل شيء، طوال عمره.

إن ما أقوله هنا أيها السادة مدعوم بشهادات عديدة مستقاة من شهود يعرفون محجوب في المغترب. لقد استطاع الشاب الطموح آنذاك في قصة مشرفة حقاً وصعبة أكثر مما نتصور أن يشق طريقه الصاعد: فترك بيت الأرملة الشابة وأضحى يعيش في مجتمعات مختلفة تماماً لم تنسه على بذخها ونبلها وأصالة محتدها المرأة التي أمسكت بيده حين كان وحيداً.

كان يرسل لها كثيراً من الفلاحين الذين يطلبون مساعدته. ينزلون في بيتها المتواضع إلى أن تشتد أعوادهم وكان هو الذي يدفع الأجر.

لقد مرّت أعوام كثيرة قبل أن تأتيه الأرملة ذات يوم وتعترف له أنها حامل، وأن والد الجنين هو شاب مشرقي من أولئك الذين أرسلهم إليها، وعدها بالزواج ثم اختفى عن الأنظار...

هذا شيء حدث قبل ثلاثين سنة - إن الشهود الذين أدلوا بشهادات حول تلك الفترة من الزمن يقولون إن محجوب كان قليلاً ما يرى الأرملة، وإن علاقته بها حين أضحت حاملاً، كان عمرها ١٥

سنة على الأقل - لقد كان رجلاً شهماً فلم يشأ أن يترك المرأة إلى مصيرها التعس، فوعدها بمساعدة لمدى الحياة، وكتب لها فيما بعد رسالة موجودة في ملف القضية، يقول لها فيها حرفياً أنه وإن كان الولد ليس ابنه فإنه يعتبره ابن بلاده على الأقل.

من أين جاءت هذه الرسالة... هذه الوثيقة التي وجدت بين كتب الضحية؟ دعونا ننتبه الآن إلى هذه النقطة: لقد كانت هذه الرسالة مع الضحية، وقال زوج الضحية في شهادته إن زوجته قالت له قبل مصرعها بأيام، أنها حصلت على وثيقة مهمة - هذه هي الوثيقة، بلا شك، أيها السادة.

لقد تولى المتهم الدفاع عن إرث الابن المزعوم مع معرفته الكاملة بحقيقة القصة. إن براعته كمحام وسمعته اللامعة وخبرته التي نعرفها جيداً، إن كل ذلك كان جديراً بجعله على بينة من نسبة الصحة في قضية من ذلك النوع. هو الذي أجرى الاتصال الأول، وهو الذي كان يفاوض السيدة ليلى وزوجها. وهو الذي كان يضع شروطاً لم يسمع عنها الابن المزعوم ولم يطلبها يوماً.

إن التحقيقات القليلة التي جرت مع المتهم، قبل أن يكتشف أنه محاصر ويلتزم الصمت، تثبت ذلك بما لا يقبل الجدل: لقد أعطى الضحية كلمة شرف بأن يكون قانونياً ثم حين جاءت بادرة

مصالحة طالب باسم الصبي المزعوم، بثلثي الإرث... فيما اعترف أيضاً بأنه كان قليل الأمل بنجاحه بالقضية أساساً.

كان يمارس ضغطاً على السيدة الطيبة، وكان الزوج الذي أراد أن ينتهي من كل شيء قد عرض عليه رشوة، صحيح أنه رفضها ولكن ليس باسم الأمانة كما قال، بل باسم المساومة.

قبل الجريمة بيوم واحد شعر المتهم، كما جاء، باعترافه، بأن الضحية التي كانت تصرّ على الاستمرار بقضية الإرث حتى النهاية بدأت تميل إلى إنهائها بتسوية، ولكن لم يخطر على باله إطلاقاً أن السيدة النبيلة كانت تريد أن تعطي الإرث كله إلى مشروع خيري.

لقد أشار السيد سعيد في آخر لقاء مع المتهم قبل الجريمة إلى أن ليلى واثقة من النجاح، ولا توجد تفاصيل كثيرة عن ذلك اللقاء الهام، ولكن لدينا ما يقنع بأن المتهم أحس بأن التيار بدأ يسير عكس ما كان يرجو، فقد تحدثت الضحية أمامه عن وثيقة حاسمة.

عند الظهيرة اتصل بالضحية، والذي لا شك فيه أن حافزه إلى الاتصال كان محاولة معرفة المزيد عن الموقف، ويشير ما حدث فيما بعد إلى أن الضحية قد أشعرته بأهمية الوثيقة الحاسمة مرة أخرى واثقة ما تزال بكلمة الشرف التي أعطاها لها.

وفي السادسة مساء كان المتهم قد توصل إلى معرفة الموقف برمته، كان يعرف بأن سعيد الحايك قد ذهب إلى الأرجنتين ليجري اتصالاً مباشراً مع الخصم، وكان يعرف بأن الخصم سيرضى الخروج من اللعبة بمبلغ يسير، وفي الناحية المقابلة كانت هناك الوثيقة التي ستحسم الموضوع حتى لو لم يحدث الاتفاق، فقرر أن يتحرك بسرعة.

السؤال الآن مزدوج: لماذا ذهب سعيد الحايك لمفاوضة الصبي في حين أنه كان يعرف بوجود الوثيقة لدى زوجته؟ وبماذا كان المتهم يطمع من زيارة ليلى الحايك ذلك المساء؟

لقد ذهب سعيد إلى الخصم بنفسه لأن ليلى كانت لا ترى مانعاً من أن يأخذ الصبي مبلغاً من المال لذكرى والدها الذي كان يهتم بأمه وبه طوال عمره، وقد قالت لسعيد ليلتها إن حصة الصبي هي حق.

ثم إن سعيد قال في شهادته أنه لم يكن يعرف الوثيقة، وقد كان لا يثق بتقديرات زوجته لأهميتها، وأنه حتى لو كانت حاسمة فإن الوقت الذي سيضيع في متابعة القضية هو محض خسارة للجميع... الأهم من ذلك كله أيها السادة أن ذهابه دون الاتصال بالمتهم بالرغم من أنه هو الذي كلفه تسلم القضية دليل لا يدحض

على ان سعيد الحايك نفسه كان يشك في حقيقة نيات المتهم.

إننا مضطرون لتصديق هذا الاجتهاد لأن المبلغ كله، أيها السادة، قد دفع تبرعاً لعمل خيري، ولأن رحلة سعيد الحايك قد تكللت - رغم مناورات المتهم - بالنجاح.

ماذا كان المتهم يريد من الضحية؟

كان يريد أن يكمل المساومة التي بدأت بقصة الثلثين، هذا هو أفضل احتمال لمصلحته وكان - إذا شئنا أن نمضي إلى أبعد - يريد إخفاء الوثيقة التي ستفقد كل شيء، حتى لو أدى الأمر إلى قتل ليلى ليخلو الجو للوارث الأرجنتيني المزعوم، خصوصاً إذا اختفت الوثيقة.

لقد غادر مكتبه في السادسة، في السادسة وخمس دقائق أغلقت سكرتيرته المكتب، بين السادسة والسادسة والنصف كان قد وصل إلى باب بيت السيد سعيد الحايك. إنه يعرف بأن المفتاح موجود فوق حافة الباب، ذلك أمر اعترفت به زوجته، وحين مد يده لأخذه لم يجده، فعرف أن الضحية موجودة في الداخل ولكنه نسي أن بصمات أصابعه بقيت فوق غبار حافة الباب، فقد كان مشغولاً بقرار آخر هو التخلص من ليلى والحصول على الوثيقة قبل أن يفوت الأوان.

عاد إلى مكتبه، وفاجأه البواب الذي استغرب وجود إضاءة في غير موعدها، يضع شيئاً يشبه السكين في جيب معطفه الداخلي ويلبس قفازاته.

عاد المتهم إلى منزل الضحية فوضع سيارته بعيداً، واقتنص كما في المرة الأولى، غياب البواب وصعد. ولا شك أن السيدة الضحية فوجئت به، ولكنها بالطبع سمحت له بالدخول اعتماداً على سمعته وصداقتها لزوجته.

ويبدو أن المساومة لم تفلح، فقد كانت الضحية الآن في موقف جيد وحين هددها اتجهت إلى الهاتف ولكنه لحق بها قبل أن تصله وطعنها في خاصرتها طعنة محكمة واحدة لا يستطيع أن يوجهها إلى المقتل بهذه الصورة المتقنة إلا جراح أو خبير، وهو خبير في هذه الشؤون، وقد سمعنا كثيراً من مرافعاته التي تحدث فيها مطولاً عن معنى الطعنة وما تظهره من شخصية الطاعن.

وقد سقطت الضحية بين مكان الهاتف والمقعد المفضّل لديها في غرفة الجلوس - أي أنها كانت في ذلك المقعد، وهي لا تجلس هناك إلا إذا كانت تستقبل رجلاً ما.

لقد فتش بعد ذلك على الوثيقة ولكنه لم يجدها، وحين قطع الأمل نهائياً زاد في التمويه فأخذ بعض المجوهرات كيفما اتفق

وأغلق الباب بهدوء كي لا يسمع الجيران ولكن حين كان يفعل ذلك أسقط علبة سجائره.

ولم يكتشف أنه أضاع علبته إلا حين صار قرب سيارته فعاد ليأخذها، ولكن حين تلاقى أمام المصعد مع بعض سكان البناية خشي أن يفتضح أمره فعاد أدراجه، وربما عاد لأنه حسب أن العلبة قد سقطت في الداخل وصار من المستحيل عليه أن يفتح الباب.

وقاد سيارته إلى الشاطىء حيث تخلص من أداة الجريمة والمجوهرات، وكان من الممكن أن لا يلفت هذا الحادث نظر أحد لو لم يتجه إلى دكان هناك ليشتري علبة لفافات جديدة.

إن الوثائق والشهادات التي تدعم هذا المنطق موجودة في الملف: لم أترك شيئاً للاستنتاج ولكني ربطت بين هذا العدد الكبير من الأمور المثبتة وحاولت أن أفسرها. إن الضحية بلا أعداء، وليس ثمة من هو مهتم بقتلها أو له مصلحة في ذلك، ولكن مقتلها سيجعل من ذلك الأفاك الذي اكتشفه المتهم الوارث الوحيد لثروة كبيرة، وبالتالي سيجعل حصة المتهم من الإرث أكبر، بناءً على اتفاق مسجل.

وكان المتهم يعرف بأن ذلك المدعي المجهول سيرضى بأقل من العشر، وقد أثبت الاتصال الأخير الذي أجراه سعيد الحايك

بالصبي هذه الحقيقة، ولذلك كان مضطراً للإسراع في تصرفه، كي يخفي الوثيقة.

إن الصمت قد يخفي جانباً من الحقيقة، ولكن في هذه القضية كانت العين الساهرة للعدالة أكثر من ناطقة.

لقد جمع ذلك كله ببراعة تستحق التقدير في الواقع، ولو كنت مكانه لما وجدت قصة أفضل وأكثر منطقية، ولما وجدت - مستعيناً بكل قوانين العالم - عقوبة أرأف من الإعدام، الذي طلبه لي بصوت واثق ورزين.

لقد سرت همهمة مستثارة في القاعة، وحين نظرت إلى وجوه الحاضرين لمست فيها اقتناعاً كاملاً أزاح من تقاطيعها الحيرة التي كنت أراها في الجلسات السابقة.

وفجأة - وراء الصمت المطبق - نبع صوت من الصفوف الخلفية وصاح:

- مجرم.

ثم قام الرجل العجوز الضئيل وأخذ يسير نحو الباب دون أن ينظر إلي.

واندفعت زوجتي نحو القفص وأدخلت أصابعها في شباكه، واخذت تصيح في نوبة من الهستيريا:

- تكلم يا صالح.. تكلم... ستموت!

دارت الجملة في رأسي وأخذ بدني يرتجف، ونظرت فجأة إلى المنصة فجاءت عينا القاضي تنظران مباشرة في عيني، وهزّ رأسه هزة خفيفة، وصاح صوت آخر من بين الحضور:

- تكلم يا صالح.. تكلم.

وعادت زوجتي تصيح:

- ستموت يا صالح، تكلم!

وأحسست أن جسدي أخذ ينضح بالعرق وبدأت شفتاي تتحركان كأنهما شقا فخ من القصب يهتز تحت ضربات جناحي عصفور مغلوب على أمره.

وصمتت القاعة - دفعة واحدة - صمتاً مطبقاً.

وكان الكلام قد وصل إلى أسناني، وسط الصمت المطبق الذي ران على الجميع، حين جاءت ليلى الحايك فجأة إلى رأسي.

وعرفت أنني سأسقط: لقد اجتاحتني موجة من الحمى فتمسكت بالحديد، وما لبث الحارس أن دفع تحتي كرسياً فجلست.

ورأيت زوجتي تنظر إليّ بشفقة ووراء كتفيها كان وجه سعيد الحايك قلقاً وكانت الدموع تملأ عينيه.

ولكن ليلى الحايك وصلت.

وعرفت أني لن أتكلم.. عرفت أن حركة شفتي كانت ارتجافاً بائساً ولم تكن قراراً بالكلام.. لقد كان قرار الصمت في أعماقي أقوى من أن يحطمه الخوف لأنه كان وليد شيء آخر: لو كان وليد الشجاعة لحطمه الخوف ولكنه كان وليد الاقتناع.. كلا، وليد ما هو أكثر عمقاً من الاقتناع، وليد الشعور بالعبث.

ألم أقل لكم إن الفخ المنصوب في سهوب الجليد لصيد الضبع قد أطبق أسنانه الفولاذية على قوائم كلب طريد؟

لقد جاءت ليلى الحايك فملأت رأسي.

وفجأة اختفت المحكمة، والرعب، والارتـعـاد، وزوجتي.. واستلقت ليلى الحايك كسولة ومستثارة عل الكرسي الطويل في غرفة الجلوس وتركتني أستلقي إلى جانبها.

يا إلهي كم كانت بشرتها طرية وصافية: أذكر أنني وضعت كفي فوق نهديها فأخذت تنتفض وأغمضت عيني وأنا أمتص، حتى الأعماق، ذلك التيار الغريب الذي أخذ ينضح في عروق راحتي من داخل صدرها ويطوف في جسدي مثل شحنة اللذة..

وقلت - يومها - كأنما لنفسي:

- غير معقول.

كانت عائمة فوق أمواج المغامرة المثيرة، وسألت بصوتها

الهادئ نصف النائم الواثق والعميق:

- ما هو غير المعقول؟

- أنت..

واندفعت تجاهي كأنما بفعل الرعدة والتهبت شفتاها على عنقي. كانت امرأة. امرأة. كانت كل النساء أيها السادة.. وأنا حزين يا ديما العزيزة، إذا ما قلت ذلك ولكن من الذي جعلها رائعة غير أنت؟ لقد كانت رائعة لأنها حطمت العادة، لأنها أعادتك.

أتذكرين تلك الليلة التي أتيت فيها إليك متعباً ومتأخراً أحمل كيساً من الكعك؟ تلك الليلة هي بالذات كانت ليلتي مع ليلى، وقد جئت يومها مباشرة من بيتها.. أتذكرين؟

قلت لي يومها حين قبلتك وأنت تحضرين العشاء في المطبخ:

- أنت تلتهب.. ما الذى حدث؟

الذي حدث أنني كنت أريدك أكثر من أي وقت مضى... وأنت نفسك قلت لي، ليلتها، بعد أن استلقيت وأخذت تلهثين إلى جانبي، كنت مرعباً ورائعاً، ما الذي تعشيناه؟ سأطبخ لك كل ليلة صحناً من السجق الحار إن كان يلهبك بهذه الطريقة..

لا. لم يكن السجق الحار يا ديما.. لم يكن السجق.. كانت ليلى، ليلى التي جعلتك دون أن تدري هي ولا أنت جسداً مثيراً وجديداً.

كانت ليلى.. التي جاءت الآن إلى قفص الاتهام ودخلت في ثيابي وأطبقت شفتيها على صمتي...

كانت ليلى التي قتلت... والتي تحولت في رأسي - لأنها ماتت - إلى عشيقة حقيقة...

◆ ◆ ◆

لقد انتظر القاضي فترة طويلة أن أتكلم.

كان يعتقد أن ارتعادي وارتجافي كانا مقدمة لتحطيم الصمت ولم يعرف - كيف؟ - إني كنت مع ليلى ومعك في لحظة خاطفة خارج المعقول.

ولكنه عاد فانتفض غاضباً. وقال شيئاً لم أفهمه - ذلك أني كنت أخرج لتوي من سريريكما - ثم صاح بي أن أنظر إليه فنظرت. وسأل بغضب:

- هل فهمت كل شيء في المرافعة؟

وصمت فيما قلت بيني وبين نفسي: نعم.

- هل لديك أي اعتراض؟ أية ملاحظة؟ أي نقض؟

وترك لي فرصة أن أجيب ولكني صمت.

- لقد طلب لك الإعدام، فهل تراني بحاجة لأشرح لك معنى ذلك؟

وظل الصمت مطبقاً.. فيما عاد بعد لحظة يصيح:

- لقد روى الاتهام قصة الجريمة، وسمعتها بحذافيرها.. هل أستطيع للمرة الأخيرة أن أسألك اعتراضك؟

وخيم الصمت عميقاً وحاسماً هذه المرة..

استعرضت مرة أخرى قصة الاتهام ولكني لم أجد - مرة أخرى - ما يقال. الآن فقط، أستطيع أن أقول لكم - خارج منطق القانون وخارج مسطرة القضاء - إنها قصة غير حقيقية.. ليس من حيث التفاصيل وواقعيتها فقط، ولكن من حيث «قاعدة البحث» أيضاً.

إن موجز القصة إذن هو أن «شيئاً ما» قد رتب لي جريمة لم أرتكبها، جريمة قمت بكل شيء فيها ما عدا مسألة الطعنة التي هي في الواقع جزء يسير جداً من مجموع الجريمة، وحتى هذه المسألة التي ربما تكون قد استغرقت نصف دقيقة على الأكثر لا أستيطع أن أثبت بأني لم أقم بها... فما هي الحقيقة أيها السادة؟ هل هي مجموعة براهين؟ هل هي مسألة حسابية؟ إن القانون لا يعترف بالنية، إلا حين يفترضها هو، وهو لا يفترضها إلا على ضوء سلسلة من البراهين، ولكن إلى أي حدّ توجد علاقة بين البراهين والنية؟ بل

إلى أي حد يمكن أن تكون البراهين حقيقية...

لا شك أني كنت سأبدو مضحكاً تماماً لو حاولت أن اقول هذا في المحاكمة. أنا الذي كنت دائماً أمثل دور الرجل الغاضب حين يحاول رجل ما في حضرة العدالة أن يكون ذاتياً أو رومانطيقياً أو بعيداً خطوة واحدة عن القانون، فهل ترى هذا الكلام يعني شيئاً آخر حين تسمعونه أنتم أنفسكم، من فم رجل ميت؟

لنحاول أن ننظر إلى مسألة العدالة بدءاً من طرفها الأخير، وليس من طرفها الأول كما جرت العادة. سأوضح ما أقصد. لقد جرت العادة أن يكون حكمها هو نهاية القصة. فلنحاول أن ننظر إليها حين نفترض أن ذلك الحكم سيكون مجرد البداية. نحن نقول عادة إن جريمة ما تستحق حكماً معيناً، ونحل المسألة على هذه الصورة، فماذا يحدث لو سألنا عما إذا كان ذلك الحكم يوازن الجريمة؟

إن الجريمة هي سلوك ذاتي، وإذا كانت العدالة تتميز، كما نقول، بأنها غير ذاتية فلماذا تلجأ إلى الانتقام الذي هو قيمة ذاتية؟

هل العدالة إجراء انتقامي؟ نحن نقول لا. ولكن إذا قتلنا رجلاً باسم العدالة لأنه قتل رجلاً باسم السلوك الشخصي فما الذي نكون قد فعلناه غير الانتقام، والانتقام بمقاييس شخصية أيضاً.

إن الشخص يرتكب الجريمة، غالب الأحيان، بتخطيط شخصي، في أحيان كثيرة يرتكبها دون تخطيط، في كلتا الحالتين نحن، باسم العدالة، نخطط وسيلة الانتقام، ولكن على مقاييس ذاتية وليس على مقاييس اجتماعية.

سوف يبدو وكأني أعتبر نفسي قاتلاً وأنصرف إلى مناقشة الحكم وعدالته، والحقيقة أني لا أعتبر نفسي كذلك، ولكن ما قيمة اعتبارى الشخصي أمام ذلك الهيكل الكامل من البراهين المبنية على مصادفات تكاد تكون وقائع مادية منطقية متسلسلة، في قلب ذلك الإله المقدس الذي نسميه القانون، والذي نجعله بصورة غير مباشرة، يمثل آراء ذاتية محضة؟

لقد شعرت باكتفاء غريب حين استمعت إلى مرافعة الاتهام، وتأكدت أكثر من أي وقت مضى أني كنت في جانب الصواب حين اخترت الصمت، وعلى العكس فلو أطلقت للساني العنان لأسأت إلى عدد كبير من الناس الذين أحبهم دون أن أقدر على إثبات براءتى. ما الذي سأكسبه من تلويث ليلى؟ وما الذي سأجنيه من توريط سعيد. إن هذه القوة المجهولة التي رتبت الأمر بكليته، متسترة وراء صمتي، هي التي يجب أن تتقدم من تلقائها لإثبات براءتي، ولو حدث ذلك، يا إلهي لو حدث ذلك! يا إلهي! سيضحي

القانون مهزلة، وسيثبت لي أنا على الأقل - وهو أمر في منتهى الأهمية - أن ألفي سنة من الاجتهاد لم تستطع أن تضبط العنصر البشري في قارورة..

لقد استمعت بصمت وتأمل إلى مرافعة الاتهام، كان منطقياً، وقد استعمل الحقائق المتوفرة ليصل إلى قناعات ليس فيها شيء كثير من التجني، ولم يكن بوسعه الوصول إلى شيء آخر حين كان يستعمل المنطق البارد في حل مسألة غير منطقية. القانون. ولكن أين هو القانون الذي يستطيع أن يتعامل مح مسائل لم يحدث أن استطاع الإنسان إخضاعها للقانون؟ أنا لا أتكلم عن المصادفة فقط التي وقعت ضحية كسيحة بين يديها، ولكني أتكلم أيضاً عن الغضب، عن الغيرة، عن الحب، عن الخيانة، عن الملل، عن رغبة رجل يعيش مثل بقية الناس ويخطر على باله ذات يوم أن يكسر طوق العادة ليجعل من حياته شيئاً فريداً وحاراً وله نكهة، بمجرد أن يفعل يكون قد خطا إلى خارج العالم الذي يحكمه قانونكم.

هل يستطيع القانون أن يغضب؟ أن يغار؟ أن يشعر بمرارة الخيانة؟ أن يمزقه الملل؟ أن يفهم منطق الخروج عن العادة؟ إنه لا يستطيع لأنه، كما نقول، ليس ذاتياً، فلماذا إذن يحاكم هذه الظواهر من الخارج، ثم يضع لها أحكاماً من منطقها؟ هل تفهمون أيها

السادة؟ إن القانون لا يقبل بأن يقوم رجل غاضب بارتكاب جريمة، ولكنه، كي يعاقبه، يقتله - كأنه هو ذاته هذا القانون رجل غاضب. لماذا لا يقبل الغضب ولكنه يقبل استعمال أدوات الغضب؟ لماذا أيها السادة؟ لماذا لا يقبل المصادفة ولكنه يعتمد عليها في إثبات الواقع؟ لماذا، أيها السادة، يأخذ من المصادفة إثباتاً للواقع ولا يأخذ منها، هي التي تجيء في اعتقاده فوق الواقع أو وراءه، عدم منطقيتها؟

وقف المحامي الشائب، ووجهه يكتسي بمسحة حزن حقيقية وأخذ يهزّ أوراقه أمام الناس محتاراً أكثر مما هو في الحقيقة، كان ذلك كله إخلاصاً ضرورياً لطقوس العدالة، وكنت أريد حقاً أن أعرف كيف سيدافع عني.

كان في موقف صعب، هذا شيء قدره له الجميع بمن فيهم الخصم، ولكن في حالة مثل حالتي، على قدر ما علمتني خبرتي، يمكن لهذا الصمت أن يكون أداة ممتازة في الدفاع إذا أحسن استعمالها، وكنت مشوقاً لمعرفة الكيفية التي سيستعملها بها.

لقد طلب من المحكمة في البدء، أن تقدر له ظروف القضية، فهو يواجه من ناحية أدلة علمية ليس بالوسع دحضها، من حيث أنها ظواهر لفعل ما، وهو من ناحية أخرى يواجه ما هو أقسى من

ذلك، يواجه صمت الرجل المتهم الذي يرفض أن يقول لا أو نعم...

كانت القاعة أكثر ازدحاماً مما كانت في المرة السابقة، وبدت ديما أكثر طبيعية، ربما لأنها تعودت مثلي على الظروف الجديدة. وقد شهدتها تتحادث مع الصحفيين فتبدو لي من بعيد محامية أكثر من زوجة، تتحدث بهدوء وعبر صوت أفقدته عمداً رنة العاطفة لتبدو، فيما تحسب، معقولة.

وفتح المحامي أوراقه ببطء متعمد فيما خيم صمت ثقيل، وقد حدق إليّ وهو يرفع الصفحة الأولى لفترة طويلة، كأنه يرجوني، هذه المرة، أن أتمسك بصمتي إلى الأبد.

لقد أعلن في نظرته تلك أنني خرجت نهائياً من القضية التي تدور حول رأسي، وأن الموضوع كله قد أضحى حواراً طريفاً حول دجاجة ما، ورهاناً مسلياً لا يمكن أن يستكمل إثارته إلا إذا استكملت صمتي، إلى الأبد.

لقد تضاءلت الآن، (أو تراني ارتفعت؟) من شخص إلى تجريد، لدى الاتهام ولدى الدفاع في آن واحد، وكنت سعيداً أن ذلك قد حدث بهذه السرعة بعد أن اعتبرت نفسي، عبر الصمت، تجريداً لا يمكن للعدالة أن تتعامل معه.

إنني أرفق دفاع المحامي، أيضاً، بهذه الأوراق - كي نستكمل

الموضوع من كافة جوانبه.

وأنتم تحاكمون الآن رجلاً صامتاً، لم يقل لا، ولكنه أيضاً لم يقل نعم، ومع ذلك إن الدفاع عنه مهمة شاقة، وإن إثبات براءته مسألة صعبة ولكن ما هو أصعب هو إدانته.

لماذا يصمت المتهم؟

لقد كان تفسير الادعاء بأنه صمت لأنه لا يستطيع أن يقول شيئاً أمام الأدلـة، إنه احتمال أقبله بكل احترام شرط أن نقبل الاحتمال الآخر الذي يقول بأن الأدلة أيضاً جاءت صامتة. إنها أيها السادة لا تعني شيئاً دون أن يقول المتهم كلمته، أما الشخص الآخر الذي يستطيع أن يقول كلمة مماثلة فقد مات.

لقد وجد موكلي نفسه، دون تمهيد، في مصيدة من الأدلة التي تعني أنه القاتل بنفس المقدار الذي تعني فيه أنه ليس قاتلاً، وأمام حيرة من هذا النوع سأسمح لنفسي أن أقول إنه أصيب بنوع من الجنون: فهو لا يستطيع أن يصدق، وشاهده الوحيد ليس ميتاً فقط ولكنه أيضاً صديق عزيز ميت، والمجرم الحقيقي نفذ جريمته بتخطيط شديد الذكاء ليضع إنساناً بريئاً أمامكم على قاب خطوة من الموت، فما الذي يستطع رجل أن يقوله في هذه الحالة؟

لقد رأينا كثيراً من المتهمين الأبرياء، يعلنون إضراباً عن الطعام

حتى الموت، أي أنهم يختارون الموت بأنفسهم قبل أن تجبرهم عليه أخطاء العدالة، إن الصمت هو صراخ من النوع نفسه، أكثر عمقاً وأكثر لياقة بكرامة الإنسان.

ألا تستطيعون أيها السادة أن تسمعوا في صمت هذا الرجل صراخ الرجل البريء المغلوب على أمره؟ صراخ الضحية التي وضعها مجرم مجهول في مصيدة دون أن يتيح لها فرصة الدفاع عن نفسها؟ أي برهان على براءة هذا الرجل أكثر قوة من أن يصمت حين تكون حياته نفسها على حافة السكين؟

لو تكلم المتهم فإنه لن يفسر شيئاً وقد يستطيع أن ينقذ حياته أو بعضها ولكن حين يصمت فقد يخسر حياته، فلماذا يصمت إذن إذا لم يكن الصمت هو أعمق دفاع إنساني عن الحياة؟

إن مرافعة الادعاء تحتوي على تناقض نظري فاضح: فهو يقول إن موكلي ارتكب جريمة عن سابق تخطيط وتعمد وإصرار، ثم يقول إنه صمت لأنه يعترف بها، ولكن لو كان هذا صحيحاً لكان من المفروض أن ينبري المتهم للدفاع عن مخططاته. لو قال الادعاء أن موكلي ارتكب جريمة مفاجئة، دون عمد وإصرار، لكان بوسعنا أن نفهم بأن صمته هو ندم عميق واعتراف كامل، لأن الجريمة إذن حدثت خارج سيطرته العقلية وأحس بفداحتها الآن، ولكن إذا كانت

الجريمة وليدة خطة طويلة الأمد فالذي لا شك فيه إذن أن المتهم كان قد وضع في حسبانه أن يدافع عن نفسه، وأعد للأمر عدته.

سأسمح لنفسي أيها السادة أن أقول إن جريمة مخططة طويلة الأمد لا يمكن أن تترك أدلة بهذه الكثرة، خصوصاً إذا كان الرجل الذي قام بها محامياً خبيراً وذكياً إلا إذا وافقنا بأن الجريمة قد حدثت في لحظتها، دون تخطيط ودون تعمد وإصرار وربما للدفاع عن النفس، ولكن هذا كله غير مثبت، إن الشيء الثابت هو أن الجريمة مخططة بدقة وإحكام، وهذا تناقض آخر، تناقض بين وجود أدلة عديدة، وبين ما نعرفه جميعاً عن ذكاء موكلي وطول تمرسه بقضايا الجنايات.

ولكن يجب أن لا يخيل لأحد أني أريد أن أقول إن موكلي قد ارتكب الجريمة دون تخطيط ودون سابق إصرار، إني - أيها السادة - لست هنا لأطالب بالسجن المؤبد لموكلي بدلاً من الإعدام - إني أطالب له بالبراءة..

لقد قال الادعاء إن اتصالاً غير مباشر قد حدث بين موكلي وبين الشاب الأرجنتيني قبل وفاة والد الضحية ليلى، ولكنه ليس من الثابت أن موكلي هو الذي قام بهذا الاتصال - صحيح أن موكلي اعتمد على هذا الاتصال الأولي غير المباشر حين أضحى محامي

الشاب الأرجنتيني، ولكن ذلك لا يثبت أن موكلي هو الذي أجرى الاتصال الأول.

من الذي أجرى ذلك الاتصال الأول مع الشاب الأرجنتيني؟ إن هذه المسألة في غاية الأهمية ذلك أنها، لو استطاعت العدالة حلها، تدخل إلى قضية الرجل المجهول الذي لعب الدور الأساسي كله، الذي قد يكون ارتكب الجريمة.

إن رجلاً مجهولاً ما زال خارج نطاق العدالة، ليس ثمة أي اثبات تركه. ولكنه موجود، وليس بوسعنا أن نمضي في هذه القضية إلى نهايتها دون أن نعرف من هو.

لنعد إلى القصة الأولى من أولها:

كان والد ليلى الحايك على وشك الموت، مخلفاً ثروة طائلة لابنته الوحيدة، حين تلقى الشاب الأرجنتيني، كما قال، في اعترافاته رسالة مغفلة التوقيع، مركبة من كلمات مطبوعة مأخوذة من جريدة ما، تفتح عينيه على موضوع الإرث.

من الذي أرسل له هذه الرسالة؟ الادعاء يوحي بأن موكلي هو الذي فعل، ولكن هذه الواقعة ليست مثبتة قانونياً، وقد لعبت عند الادعاء دور المدماك الأساسي الذي ركب عليه قصة الجريمة برمتها... لقد علم موكلي بالقضية من رسالة مماثلة وصلت إلى

السيد الحايك.

ليست مهمتي اكتشاف ذلك الرجل، ولكن القانون يعطيني حق افتراض وجوده، وسأبني القصة، في ظروفها التي تعرفونها جيداً، على افتراض وجود ذلك الرجل.

ليس بوسعي، وليس بوسع الادعاء أيضاً، معرفة الطريقة التي تم الاتصال بها بين موكلي والشاب الأرجنتيني، ولكن لدينا حقيقة واحدة في هذا المضمار وهي أن موكلي اتصل بالشاب الأرجنتيني بعد تعرفه إلى عائلة الحايك وليس قبل ذلك.

من أقوال الشهود لدينا إثبات آخر وهو أن سعيد الحايك، هو الذي طلب من موكلي موعداً وليس العكس، هذا يعني أن موكلي لم يكن على علم بتلك القضية - بل أكثر من ذلك فقد قال سعيد الحايك أنه هو الذي أطلع موكلي على وجود قضية من هذا النوع وأنه طلب منه توليها كخصم لأنه يثق بشهامته وتقيده بالقانون قبل أن يتولاها محام آخر يدخلها إلى عالم من المساومة والضغط وربما التزوير.

كيف عرف سعيد الحايك تفاصيل القصة؟

لقّد أشار سعيد الحايك في التحقيق إلى رسالة مماثلة لتلك التي وصلت للشاب الأرجنتيني، وقد جعل السيد الحايك موكلي

يطلع على تلك الرسالة الغامضة، كخصمين شريفين ليس لديهما ما يخفيانه.

نحن أيها السادة أمام مجرم حقيقي، شديد الذكاء، وأخشى أن يكون قد ضللنا جميعاً، لقد اتصل بالوريث المزعوم واتصل بعائلة الحايك وانتظر من الاتصالين أن يفرضا محامياً، ليتيسر له أن يلعب لعبته في الوقت المناسب.

لدينا سؤالان الآن، أيها السادة: هل كان ذلك الوريث الأرجنتيني مزعوماً حقاً؟ ولماذا اتصل الشخص المجهول بهذه الطريقة بسعيد الحايك وخصمه وأدخل المسألة إلى القضاء؟ ما هي مصلحته في ذلك؟

ليس لدى موكلي، حتى لحظة وقوع الجريمة البشعة، ما يثبت أن الوريث الأرجنتيني هو وريث مزوّر، وبوسع أي منّا أن يتصور نفسه في مكان موكلي: قضية إرث معقدة. فيها احتمالات متساوية ولكن فيها أيضاً الإغراء الذي يمكن أن يجلبه الانتصار، حصة قانونية من الثروة.. فما هو المانع من أن يتولّى موكلي القضية طالما هي في نطاق القانون؟

صحيح أن الشاب الأرجنتيني لم يستطع أن يثبت نسبه إلى والد ليلى، ولكن الصحيح أيضاً أن ليلى لم تستطع أن تثبت العكس..

إن الوثيقة الوحيدة القادرة على أن تحسم الاحتمالين لمصلحة ليلى لم تبرز إلا بعد مقتل الضحية، وكما قال الشهود فإن موكلي لم يكن على معرفة بها وبحقيقتها حتى حين أعلمته الضحية بوجودها.

إذن، من الناحية المنطقية، ليس لدى موكلي أي مانع من أن يأخذ القضية، وعلى العكس فقد أخذها بناء على نصح خصمه، لأن خصمه هذا كان يثق بنزاهة موكلي وحرصه على القانون.

ولكن من أين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة، والتي لم تُكشف إلا بعد وقوع الجريمة؟

إنه سؤال مهم أيها السادة، في غاية الأهمية بالرغم من أن كل الشهود لا يعرفون قصتها.. إنني أجرؤ على القول بأن جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هو إثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول.

وسرت فجأة ضجة في قاعة المحكمة، فأخذ القاضي يضرب المنضدة بكفّه طالباً الهدوء، وصاح صوت قريب لم أستطع تبين صاحبه:

- أنت تزيد الموضوع تعقيداً.

ولكن المحامي الشائب أخذ يهزّ أوراقه مستثاراً، طالباً من القاضي أن يهيئ له فرصة إكمال مرافعته بهدوء، وبدت وجوه

الحاضرين، حين نظرت إليه، مملوءة مرة أخرى بالحيرة التي كانت عليها قبل مرافعة الاتهام.

وكان المدعي العام يهزّ رأسه ساخراً، ولكن بصمت، وفجأة نظر المحامي إليّ وكأنه يستشيرني فالتزمت الصمت.. ولكنه بدا لي في تلك اللحظة أكثر ذكاء ودهاء مما توقعت، يجيد هو الآخر استعمال المواد الخام ليبني هيكله الخاص دون أن يرتكب مغامرة غير مأمونة العواقب.

وأعترف أنني أنا نفسي لم أكن لأفكر بمثل هذا المخرج، لقد كان وضع نغمة «الرجل المجهول» في الدفاع وسيلة بارعة لتحميله كل التفاصيل التي ظلت غامضة، وفي هذه الحالة فإن المحامي لا يخسر شيئاً وليس أسهل عليه من تأليب القضاء على رجل ما زال فارّاً بعد أن قام بخديعة رهيبة.

لقد كان المحامي بارعاً في استغلال نقطة حساسة في القضية هي صمتي، وكان صمتي يثقل ضمير المحكمة وقد جاء المحامي ليتيح لها مخرجاً لائقاً عن طريق إلقاء التبعة على أكتاف رجل هارب.

ولكن القاضي لم يكن قد استطاع - بعد - إسكات الضجيج، وكان المحامي الشائب ما زال يلوّح بأوراقه مطالباً بإتاحة الفرصة له

ليكمل مرافعته وكانت زوجتي وسعيد الحايك يهزّان رأسيهما للمحامي مشجعين في تعابير بدت وكأنها تتمسك بما تبقى في أوراقه من أمل.

وفجأة ضرب المحامي منضدته بجماع كفّه فأحدثت دوياً هائلاً أعقبه صمت مطبق، وانطلق صوته الراجف وسط ذلك الصمت يصيح:

- نعم، أيها السادة.. سترون - لو تكرّمتم إعطائي فرصة إكمال دفاعي - إن هناك رجلاً مجهولاً قام بارتكاب هذه الجريمة البشعة ويريد إلصاقها بموكلي.

وهزّ أوراقه في وجه الحاضرين:

- إن سراح موكلي ينبغي أن يطلق فوراً.. ولديّ هنا الإثبات.

وصاح صوت في الصف الخلفي:

- إنه منطقي.. دعوه يكمل فقد ينقذ الرجل.

ومرة أخرى طلب القاضي من صاحب التعليق أن يغادر القاعة ومرة أخرى شهدت الرجل العجوز الضئيل يخرج بهدوء وكأنه جاء فقط ليقول هذه الكلمة.

ووسط الصمت المستثار الذي خيّم بعمق ثقيل على القاعة مضى المحامي الشائب في محاولته البارعة لإبعاد حبل المشنقة

عن عنقي...

وكنت أعرف، في شعور غامض، أن القنبلة التي رماها المحامي العجوز في قاعة المحكمة، حين تحدى الاتهام بوجود رجل مجهول وراء الجريمة، هي قنبلة لا تحتمل الفحص، وأن الضجة التي أحدثتها بين الحضور كان سببها الأساسي أنهم لم يستمعوا لتتمة المرافعة.

وكنت أرى - بيني وبين نفسي - أنه لو طوى المحامي أوراقه عند تلك النقطة ومضى لكان ترك في القاعة أثراً أبعد وأعمق وأكثر تشويشاً من ذلك الذي سيتركه بعد انتهاء المرافعة..

وعلى أي حال فقد كنت أعرف أيضاً أني لا استطيع تقدير حقيقة كفاءة ذلك المحامي الذي فاجأني بمدخل لم أكن أتوقعه... وحين قمت بحسابي الخاص رأيت أن ذلك المحامي، لو كان أكثر كفاءة مما هو، لاستطاع أن يحوك قصة بارعة قد تنطلي إن ليس على المحكمة، فعلى الرأي العام:

ماذا أقصد بكلمة كفاءة؟

أقصد أنه لو استطاع، مثلاً، إقناع الشهود بإسقاط جمل لا يعتبرونها مهمة في شهاداتهم لجاءت قصته محبوكة تماماً.

ولكنني كنت أعرف أن ذلك الشيء لن يحدث لأنه يحتاج إلى درجة في الذكاء والتصور هي عادة من أسلحة العقل الشاب المغامر

وليست من مؤهلات العقل العجوز..

لقد عاد المحامي يقرأ بهدوء، صار الآن أكثر ثقة بنفسه وأشد تماسكاً، وقد رمقني بنظرة خاطفة يوحي بأنه لم يعد - بعد - بحاجة إلى معونتي.

بدأ فكرر قراءة صفحته كي يعيد وصل الموضوع بدقة ويجعله أكثر تأثيراً...

وانتهى بلهجة عنيفة إلى التأكيد الذي سبب مقاطعته قبل دقائق:

- .. من أين جاءت تلك الوثيقة الوحيدة التي لم تكشف إلا بعد وقوع الجريمة؟ إنه سؤال مهم أيها السادة.. في غاية الأهمية بالرغم من أن الشهود لا يعرفون قصتها. إني أجرؤ على القول بأن جهل جميع الشهود بتلك الوثيقة هو إثبات لا يدحضه الشك بوجود رجل مجهول..

من هو هذا الرجل؟

نحن الآن في طريقنا لاكتشاف جواب السؤال الذي طرحناه قبل قليل: لماذا اختار الرجل المجهول أن يدفع القضية إلى المحاكم بتلك الوسيلة الخبيثة؟

أيها السادة، لقد اختار ذلك ليجد الوقت المناسب كي يطرح

الوثيقة التى يملكها للبيع، والقضية فى ذروتها.

لقد كان من الممكن أن تكون الوثيقة الآن في يد الشاب الأرجنتيني لو أن اتصالات الشخص المجهول بليلى قد اتخذت مجرى آخـر.. وكان الشاب، على الأقل كما يفترض ذلك الرجل المجهول، مستعداً لشراء الوثيقة الوحيدة التي يمكن أن تحول بينه وبين الإرث، ولكن المجهول اتصل بليلى لأنه افترض أنه يستطيع أن يبيعها الوثيقة بسعر أغلى.

إن الشاب الأرجنتيني فوجىء بالقصة كلها، وقد اعترف بذلك، كانت الثروة بالنسبة له مصادفة تهبط من السماء ولذلك قبل بحصّة صغيرة، أما المحامي فإن مهمته كما تعلمون، أكبر من ذلك وأكثر التصاقاً بالعدالة.

صحيح أن موكلي طلب للشاب الأرجنتيني ثلثي الإرث، دون أن يكون الشاب نفسه قد طلب ذلك، ولكن لماذا ينسى الاتهام أن موكلى كان قد منح السيدة الحايك وعداً بعدم المساومة، وقد اكتشف حين جاءته مع زوجها لتساوم أنها واقعة تحت ضغط الزوج. وكان موكلي يريد الالتزام بوعده فوجد المخرج في أن يطلب لموكله ثلثي الإرث ليصرف نظر الزوج نهائياً عن التفكير بالمساومة؟

إن هذا القول مجرد افتراض، وأنا أميل لأكون أكثر واقعية من

الاتهام في هذا الصدد فأقول إننا كيفما قلبنا الأمر فإننا سنرى أن موكلي لم يكن يلعب على الحبلين، كما قال الاتهام.

إننا نسقط هنا أمام أعينكم قصة سمعتموها من الادعاء تقول إن موكلي كان يلعب لعبة غير قانونية، ونسقط معها افتراضاً اعتمد عليه الادعاء يقول إن موكلي كان يضغط للخروج بحصّة كبيرة لنفسه من تلك الثروة. إن كل الذي أراده موكلي هو أن يتابع القضية قانونياً، وهو لم يطالب بالثلثين لموكله حين جاءته عائلة الحايك للمساومة إلا لأن تلك المساومة أقنعته بأن فرصته لكسب الدعوى متوفرة ما تزال، وهذا الطلب لم يكن خروجاً عن وعد الشرف الذي كان قد أعطاه للضحية لأنه لم يطالب بالثلثين بديلاً عن القانون، ولأنه، من ناحية أخرى، مرتبط أيضاً بوعد شرف آخر، وأكثر قيمة، أمام مهنته وموكله.

إن التحقيقات وشهادات الأطراف المختلفة تعطينا الموقف التالي:

كانت الضحية واثقة من ربح الدعوى، ولذلك كانت غير راغبة في المساومة، وكان زوج الضحية السيد الحايك أقل ثقة لأنه أكثر شكاً وكان ميالاً للمساومة، أما موكلي فقد كان رجل قانون، لا يتعامل بالطبيعة مع الظنون، وكان يترك للعدالة أن تقرر كل شيء، مانحاً

موكله وخصمه، في نبل نادر، وعد شرف بأن يكون ملتزماً بالقانون وبإرادة العدالة.

بناءً على هذا الموقف نستطيع أن نفهم أن السيد الحايك قد استطاع إقناع زوجته أخيراً ببذل محاولة للمساومة خصوصاً وأنها قررت التبرع بالمبلغ كله لعمل خيري، وقد جاءا لزيارة موكلي بهذا الشأن ولكن الصفقة لم تتم، وبدت الضحية كما قال الشهود مصرّة على أن تأخذ القضية مجراها الطبيعي، وكذلك موكلي - أما السيد الحايك فقد أراد أن يبذل محاولة أخرى مباشرة مع الخصم.

نحن نعلم أيها السادة أن الضحية اتصلت بموكلي المرة الأولى كي تقنعه بأن لا يشجع زوجها على إجراء أية مساومة، وأن موكلي منحها وعد شرف بذلك، فلماذا لا نعتقد أنه اتصل بها في اليوم الذي وقعت فيه الجريمة ليسألها عن رأيها الآن، وقد ذهب زوجها ليجري اتصالاً مباشراً مع الخصم؟

أنتم ترون أيها السادة الآن أن مثل ذلك الاتصال كان واجباً، فقد توقع أن يتصل به موكله ليسأله رأيه، ولذلك كان لا بد له من معرفة طبيعة الموقف الجديد للسيدة الحايك التي كان قد منحها وعداً بعدم قبول أي تسوية من هذا النوع.

وليس بوسع أي منّا أن يعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة،

اثنان يعرفان ذلك فقط: واحد صامت والآخر ميت.

أما الذي نعرفه أيها السادة فهو ما يلي:

إن القضية الآن لم تخرج من يد موكلي، كما قال الادعاء ولكنها خرجت من يد الشخص المجهول، الذي لا يعرفه أي واحد منا.

إن موكلي حتى تلك اللحظة لم يخسر شيئاً، في الحقيقة أنه لا يملك أن يخسر أو أن يربح - الشخص الآخر هو الذي كان يخسر، الشخص المجهول الذي بدأ تلك القضية، ثم أحس بأنها خرجت من سيطرته.

شخص آخر، بالإضافة لهذا المجهول، كان يخسر أيضاً.. ذلك هو السيدة ليلى الحايك، التي كانت ترفض أية مساومة مع الوريث المزعوم.

سعيد الحايك لم يكن خاسراً بالطبع، موكلي لم يكن خاسراً أيضا، الشاب الأرجنتيني لم يكن خاسراً: فقط السيدة الحايك التي كانت تشعر بأنها ستدفع مبلغاً لشاب لا تعرفه أساء إلى ذكرى والدها، ثم ذلك المجهول الذي كان يشعر بأن الصفقة قد خرجت من يديه، كوسيط.

فلماذا لا يبذل ذلك المجهول محاولة أخيرة؟

لماذا لا يتصل بنفسه هذه المرة بالسيدة الحايك فيقول لها أنه

يستطيع أن ينهي تلك القضية بوثيقة واحدة إذا منعت زوجها من إعطاء العشر للوريث المزعوم وأعطته له بدلاً منه؟

لنقل، افتراضاً، إنه اتصل بليلى وحدثها بشأن الوثيقة، ولكنه طالبها بأن لا تبوح بها، وقد أشارت ليلى إلى الموضوع لزوجها، ولكن بثقة قليلة: فهي لا تعرف حقيقة تلك الوثيقة ولا تملكها بعد، وهذا ما يفسر أنها رفضت إعطاءها لزوجها أو لموكلي أو الدخول في التفاصيل بشأنها معهما. وهي من ناحية أخرى لا تعرف كيف سترسو الصفقة مع الشاب الأرجنتيني لتساوم المجهول على أساسها، وكان زوجها - كما قال بنفسه - مصراً على المساومة فتركته يفعل واثقة بأنها ستكون، في نهاية المطاف، في جانب الانتصار.

لسنا نعرف ما الذي قيل في تلك المخابرة الموجزة التي حدثت بين الضحية وموكلي ظهر اليوم التي وقعت فيه الجريمة، ولكننا نستطيع أن نستنتج بناء على وقائع حدثت فيما بعد، أنها طلبت منه مقابلتها في بيتها في السابعة من ذلك المساء.

لماذا في السابعة وهي التي تعرف أن موكلي يغلق مكتبه في السادسة؟

إنه سؤال مهم أيها السادة، ففي السادسة كان موعدها مع الرجل المجهول، وكانت تريد أن تستشير موكلي بعد مقابلة الرجل

المجهول لتكون على بيّنة، ولكنها لم تقل ذلك لموكلي، كما يبدو، لأنها لم تكن مطمئنة بعد إلى حقيقة تلك الوثيقة ولا إلى صدق الرجل المجهول ومرتبطة بوعدها له بعدم الحديث.

لقد أغلق موكلي مكتبه، وضيّع وقتاً في التجوال ريثما يحين موعده مع الضحية، فليس من المنطق في هذه الحالة أن يذهب إلى بيته الذي يقع في الطرف الآخر من البلدة - ويبدو أنه تذكر بأن الاستعانة ببعض الأوراق قد تصبح ضرورية فعاد إلى مكتبه حين فاجأه البواب يضع «شيئاً متطاولاً» في جيبه، ولم يكن هذا الشيء إلا الأوراق التي لا بد لمحام ما أن يصطحبها معه إلى لقاء يتعلق بالعمل.

ليس من المعقول أن يكون موكلي، في تلك الفترة التي وقعت بين السادسة والسادسة والنصف من يوم الجريمة، قد ذهب إلى بيت الضحية - ليس لدينا أي اثبات على ذلك، والبواب يقول إنه لم يره، واذا كنا نعتقد أن موكلي قد غافله، فإنه من الصعب أن نصدق بأنه نجح في ذلك أربع مرات متوالية في ظرف نصف ساعة، خصوصاً وأن البواب لم يغادر مكانه كما قال إلا لفترة قصيرة.

لقد وصل موكلي إلى بيت الضحية في موعده، ولكنه لم يجد أحداً - وقد أراد كما يبدو أن يعرف فيما إذا كانت الضحية في

البيت، كي يواصل محاولته، أم خارجه كي ينتظر وليس ثمة إلا طريقة واحدة لمعرفة ذلك: المفتاح، وفيما كان يحاول تحسيس مكان المفتاح، أسقط علبة سجائره. لم يجد موكلي المفتاح في مكانه فعرف أن السيدة ليلى في الداخل، وأنها لسبب من الأسباب لا تريد ملاقاته، أو أنها نائمة - ولم يكن الأمر يعنيه كثيراً فغادر المنزل، ولكنه اكتشف أنه ضيّع علبة لفافاته فعاد، وكما يحدث مع أي إنسان آخر يقابل إنساناً في المصعد وهو في طريقه لزيارة امرأة ذات زوج مسافر يشعر بأنه قد يجرحها أمام جيرانها فعاد أدراجه.

لو كان موكلي قد ضيّع علبة لفافته في مسرح جريمة قتل لما تردد في بذل محاولة لإيجادها، فهي البرهان الأوحد في هذه الحالة وبالوسع إخفاؤه، ولكن حين كان الأمر كله يتعلق بعلبة لفافات شبه فارغة فإن العودة إلى باب منزل امرأة وحيدة أمام أعين جيرانها، عمل لا يستحق الإصرار.

الآن، ما الذي حصل بين السادسة والسادسة والنصف؟

لقد جاء ذلك الرجل المجهول ليساوم ليلى، وأبرز لها الوثيقة الحاسمة، ولكن يبدو أن الاتفاق لم يحدث، وليس يعرف أحد - إلا الضحية والرجل المجهول - لماذا قامت إلى الهاتف: ربما لتستدعي الشرطة، ربما لتستعجل موكلي، ولكن الجريمة حدثت تلك اللحظة

بالذات، فيما كانت الضحية بين الهاتف والمقعد - كان المجرم المجهول يفترض كما يبدو أنه يستطيع الآن تأمين الإرث للشاب الأرجنتيني وحده، وبالتالي فإن حصته ستضحي أكبر وقد كان لا بد من تلك الجريمة لأن أمره كان على وشك الافتضاح أيضاً.

إنني لا أدعي أني أعرف دوافعه كاملة فذلك من شأن تحقيق آخر تقوم به المحكمة - ولكني لا أرى بالنسبة لرجل قدير مثله مانعاً من ارتكاب هذه الجريمة، نهاية منطقية وعقلية لما بدأه.

لقد أثبت التحقيق أن القاتل كان يلبس قفازين، فلماذا لم يلبسهما موكلي، إذا كان هو القاتل، حين فتش عن المفتاح؟

إن الرجل الذي يلبس قفازين ليرتكب جريمة لا يترك أيها السادة بصمات أصابعه على حافة باب مغبر، ولا يعرض نفسه أمام ثلاثة شهود على باب المصعد، ولا يسقط علبة سجائره حين يغادر المسرح ثم لا يعود ليأخذها.

وأنا أعرف أن الادعاء سيتحدث عن رزمة ألقاها موكلي في البحر، لكني أعتقد أنه لا يعرف عنها شيئاً هو الآخر بقدر ما أعرف أنا - إن قذف رزمة ما، مجهولة، في البحر ليست دليلاً على أي شيء، والعدالة لا تستطيع أن تشنق رجلاً لأنه ألقى رزمة في مياه البحر.

ليس ثمة سبب ليرتكب موكلي جريمة من هذا النوع، إن جميع الشهود اتفقوا على أن ذلك الاتهام شيء بعيد الاحتمال. وقد رأينا ها هنا انعدام الحافز أيضاً. وبنفس القوة أستطيع أن أقول إني لا أعرف أحداً يهمّه ارتكاب هذه الجريمة إلا ذلك الرجل المجهول...

لقد وجه ذلك المجهول الذي نجح حتى الآن في تجنيب العدالة طعنة محكمة واحدة إلى خاصرة الضحية فيما كانت توليه ظهرها، وإمعاناً في إخفاء جريمته والتمويه على حقيقتها قام باستلاب بعض المجوهرات، ولكنه في غمار اضطرابه لم يعثر على الوثيقة الحاسمة، التي وجدها التحقيق مدفونة في خزانة الكتب القريبة.

كيف وصلت الوثيقة إلى هناك؟ هل يعقل أن تضع امرأة ما وثيقة هامة كهذه كانت في حوزتها منذ زمن بين كتب زوجها؟ لا يعقل، وقد وجدت الوثيقة هناك لسبب بسيط هو أن الضحية غافلت الشخص المجهول الذي كان هناك وخبأتها في أقرب مكان، أو كانت قد اشترتها منه ودفعت ثمنها مجوهراتها بناء على إصراره، ثم غافلها وقام بطعنها لسبب لا نستطيع أن نكتشفه الآن.

إن كثيراً من الاحتمالات يمكن أن ترد هنا، وذلك لسبب بسيط وهو أن المجرم الحقيقي ليس هنا: هل أعطاها المجرم الوثيقة قبل

تلك الجلسة في اليوم المشؤوم ثم اختلف معها وانتهى الخلاف بالجريمة؟ هل قتلها في محاولة لاسترداد الوثيقة ثم فوجئ بجرس الباب وبيد تبحث عن المفتاح فأركن إلى الفرار أو الاختباء بشكل ما؟ هل كانت الوثيقة حقاً في حوزة الضحية قبيل الجريمة؟ هل هي الوثيقة التي تستطيع أن تحسم القضية، أم ثمة وثيقة أخرى جعلت أمر فقدان الوثيقة الأولى ثانوياً؟ هل كان المجرم قريباً من العائلة إلى حد الاطلاع على تفاصيل ثانوية، أم أنه كان على معرفة بماضي الأب؟

إن هذه الأسئلة، وكثيراً جداً غيرها، ينبغي أن نجد أجوبتها، أين؟

هذا هو السؤال المهم.

أيها السادة، يوجد رجل آخر، أو أكثر وراء هذه الجريمة المروعة، رجل استطاع تضليلنا جميعاً وليس قتل امرأة فاضلة بريئة فقط ولكن محاولة قتل رجل بارع بريء أيضاً، وكي لا نسمح لذلك بالحدوث فإن علينا بدء التحقيق من جديد وإطلاق سراح موكلي فوراً.



لقد قوبلت تلك المرافعة بالصمت والذهول، واكتشف كثير من الحضور كما يبدو أن المسألة أكثر تعقيداً مما حسبوا، وكان الادعاء، طوال الوقت، يهز رأسه مستنكراً، أما القاضي فقد نجح في أن يجعل وجهه جامداً تماماً، مكتفياً بتسجيل ملاحظة بين الفينة والأخرى.

وفوراً بدأ استجواب الشهود مرة أخرى، إلا إن الدفاع والاتهام معاً لم يستطيعا أن يضيفا شيئاً جديداً نتيجة لأسئلتهما المعقدة، لقد عاد كل شاهد فكرر بالضبط ما كان قاله في الاستجواب السابق، ويبدو أن شعوراً ما قد سيطر على الجميع بأن القضية كانت تمر في تلك اللحظة بمرحلة دقيقة من التوازن، وأن كلمة إضافية واحدة قد ترجح كفة ما، فيذهب رأسي ثمناً، أو كفة أخرى فيطلق سراحي فوراً. ولم يكن أي من الشهود راغباً في تحمل مسؤولية أي من الاحتمالين.

وبدت القضية كلها - تلك اللحظة - أمام لحظة حاسمة...

ورغم إرادتي أخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت أسمع دقاته في السكون المتوتر...

وأخذ قلبي يخفق بعنف حتى كدت أسمع صوته يدوي وسط السكون المطبق الذي كان مخيماً على الجميع.

وبدا لي تلك اللحظة بالذات أن قصة المحامي العجوز المختلقة، قد تكون حقيقية، بل إني مضيت - في الدوار الذي أصابني والذي كنت أجهل حتى الآن حقيقة دوافعه - مضيت أتصور القاضي يقوم عن مقعده فيربت على كتفي وعيناه مغرورقتان بالدموع... ويقول لي امضِ إلى بيتك أيها المسكين... فأنت بريء.

حتى تلك اللحظة لم أكن أعلم أبداً حقيقة الدوافع وراء هذه الأفكار الساذجة، كانت شيئاً آخر يختلف تماماً عمّا حسبته في البدء.

كنت أحسب - وأنا خاضع للجو الذي خيّم بعد مرافعة المحامي - أن المسألة كلها هي مباراة في البراعة، وأن براءتي تتوقف على أن يكون محاميّ أبرع من الاتهام بغض النظر عن الحقيقة.. وأن الذي يستطيع - بين الاثنين - اختلاق القصة الأكثر إقناعاً لا القصة الأكثر «واقعية» هو الذي يفوز برأسي: فإما أن يرسله إلى البيت أو يرسله إلى المشنقة.

القصة الأكثر واقعية؟

ما هو الواقع أيها السادة؟ إنه - في اعتباركم - المعقول والمنطقي.

ولكن كم من الأحداث الواقعية بين معقول ومنطقي؟ ما هي

العلاقة بين الواقع والمعقول؟ هل الحرب، مثلاً واقعية أم معقولة... أتـرون، إننا نلعب على بعضنا، إننا نزور العالم كي نفهمه. يا للتعاسة...

دعوني أقف قليلاً، وأعدكم بأن أعود إلى الموضوع، إنني أتذكر الآن حادثة مهمة هي صورة مصغّرة عن قصتي معكم، سأسمح لنفسي أن أستعملها هنا استشهاداً لما أرى.

حين كنت مراهقاً كانت خادمتنا صبية بشعة.. أذكرها الآن بوضوح وكأنها تجلس معي في هذه الزنزانة: كانت شديدة السمرة، مجدورة الوجه، ذات شعر مجعلك كالأسلاك، وأسنان بارزة صفراء... ولكنها كانت - كأنما لتعوّض ذلك كله - ذات جسد مثير.

كانت قادمة من الريف، ويبدو أنها لم تطق أبداً يومذاك فكرة أن تحبس ثدييها الكبيرين في صدارة، ولذلك تركتهما تحت ثوبها الرقيق يرجّان كلما انتفضت أو تحركت... وكنت أضع عينيّ عليهما وألتهب في سني الغضة حتى لأحس النار تأكل وجهي من الداخل... ولكن وجهها البشع كان يقف دائماً مثل الحارس الشرس لذلك الجسد المثير: يخيفني، ويسحق أشواقي الصغيرة بوحشية.

وحدث ذات يوم أن جئت من المدرسة مبكراً ففتحت لي الباب... كانت تمسح البلاط في غرفة الجلوس حيث اعتدت أن

أجلس بعد وصولي من المدرسة، كان ثوبها الرقيق ذا قبّة واسعة وحين مضت ببراءة تمسح البلاط راكعة على ركبتيها شاهدت صدرها العاري يرتجّ مع حركتها.

كان رأسها محنياً فلم أرَ وجهها، كنت أرى صدرها فقط وردفيها وجسدها المثير ينتفض - كما لم أرَ جسداً في حياتي - تحت ثوبها الرقيق.

كانت النوافذ مفتوحة على وسعها والشمس تصبّ في الغرفة كل حرارتها.. وشعرت بدوار لا يقاوم ولست أدري كيف وقفت واندفعت نحوها دون تفكير.. وكأن قوة غامضة في أعماقي كانت تحسب بدقة لا مثيل لها كل التفاصيل: كانت أصغر مني حجماً فأوقفتها ممسكاً بذراعيها دون أن أنظر إلى وجهها، ودفعتها نحو جزيرة الضوء المربعة التي كان ضوء الشمس القادم من النافذة يفرشها على البلاط المبلول.. كانت قبة ثوبها واسعة فأنزلتها بهدوء حول كتفيها فانهمر الرداء كله دفعة واحدة.

في تلك اللحظة فقط تصدّت للمقاومة، إلا إنني ألقيتها على البلاط المبلول مزوّداً بقوة غريبة... لست أدري من الذي كان يرتب الحساب في رأسي، دونما إرادة مني، إلا إنه كان حساباً دقيقاً، مذهلاً في وقته... فحين قذفت نفسي فوقها جاء ضوء الشمس

مباشرة في عيني فلم أعد أرى شيئاً.

أنا متأكد الآن أنه لو لم تصبّ الشمس ضوءها في عيني، ورأيت وجهها لما تمّ الأمر... لما كان لأية قوة في هذا العالم أن تتمه.. ولكن حين عشي بصري انفتحت عوالم أخرى أمامي... عوالم من كل صور النساء العاريات التي رأيتها في حياتي... وكان الجسد المثير وهو يضجّ بالمقاومة الأكثر إثارة لأروع امرأة ضمّتها ذراعاي في عمري كله!

وقد اقتحمتها، تلك المرأة المسكينة.. فوق الأرض المبتلة، أمام الشبابيك المفتوحة، وسط توقع مثير بأن ينفتح الباب في أية لحظة وتدخل أمي أو يدخل أبي.. أو ينفتح أي شباك في مواجهة بيتنا ويطلّ منه رأس يرانا - في ذلك الوضع الرهيب - أمامه مباشرة.

وفجأة استسلمت، ومكّنني استسلامها من امتلاكها بهدوء... كانت أول امرأة في حياتي وأروعهنّ على الإطلاق.. وحين اهتززنا تحت جلد لذة غريبة لم أكن أعرف مذاقها بدأت تنشج كالمسعورة... وتلك اللحَظة فقط رأيت وجهها بعد أن تجنّبت عيناي ضوء الشمس، وهالني ما فعلت وأثار في عروقي أنهاراً من الاشمئزاز.. لقد بدا لي تلك اللحظة كأنني أنام مع جسد لامرأة مقطوعة الرأس جيء لها برأس بشع مستعار، وقد جعلها البكاء الذي كان مزيجاً من اللذة

والخوف والشعور بالذنب والعجز والأسى أكثر بشاعة وتناقضاً..

ولم أستطع أن أسحب نفسي بهدوء... لقد شعرت بأنني كنت مجرماً وضحية في وقت واحد، كاسباً وخاسراً، منتصراً ومهزوماً.. وتفاعلت هذه المشاعر المريرة في جسدي تفاعلاً حارقاً فانهلت على وجهها بكلتا يدي أصفعها دونما رحمة.

وفي غمار ذهولها مضيت إلى غرفتي، مستشعراً في حلقي طعم القيء، وعلى شفتي وخز آثار الجدري في وجهها البشع.

وانتظرت إلى اليوم التالي، هادئاً.. حين استدعاني والدي إلى غرفته وكانت أمي هناك، وكانت الخادمة واقفة أيضاً.

القضاء... أيها السادة.. مصغراً قليلاً!

لقد ألقى والدي الاتهام بقسوة وإيجاز وهزّت أمي رأسها تعسة وعيناها ممتلئتان بالدموع فيما ظلت الخادمة صامتة وهي تقف في الزاوية مستشعرة الذلّ حتى أعماقها.

ولكنني احتفظت بالهدوء.

وحين أنهى والدي اتهامه بدأ مع أمي ينظران إليّ، بانتظار الدفاع. وبهدوء عدت فرويت قصة والدي - كما رواها امامي - مشدداً على الكلمات:

- إذن.. اغتصبت أنا هذه الفتاة (وحرصت أن أشير إليها باحتقار

ملفتاً النظر إلى بشاعة وجهها) أريد أن أعرف متى وأين..

وروت الخادمة وهي تبكي التفاصيل الحقيقية لما حدث، وحين انتهت سألني والدي بقسوة أن أقول فيما إذا كان ما قالته البنت حقيقة.

وبلؤم سألته:

- أنا الذي أريد أن أسألك هذا السؤال... أنا حزين أنني أقف هنا أمامك أنت بالذات لأواجه هذا الاتهام السخيف.. إذن لقد اغتصبت أنا هذه الفتاة (مشدداً على كلمة «أنا» لأشير إلى أصالة نسبي ونبلي وثقافتي ومستواي الاجتماعي، وعلى كلمة «هذه» لأشير إلى بشاعتها المرعبة) في عزّ الظهر، على الأرض المبلولة، أمام الشبابيك المفتوحة، وراء الباب الذي كان يمكن أن ينفتح في أية لحظة.. لم يتمزق رداءها، ولا هي قاومت، ولا الجيران شاهدوني، ولا أنتما جئتما..

وقبل أن أكمل، لمحت في عيني والدتي ارتياحاً، وعرفت أنني ربحت القضية: فقصة الخادمة ليست معقولة ولا منطقية رغم أنها حقيقية، أما قصتي فمعقولة ومنطقية ورغم ذلك ليست حقيقية!

وأكملت:

- ثم ليس ذلك فقط... بل إنني ضربتها.. اسمعي يا هذه: هل

ضربتك قبل الحادث أم بعده أم حين كنت ما زلت...

وقاطعني والدي صائحاً:

- اسكت يا قليل الأدب!

إذن بات الآن لا يسمح بأن تقال الكلمة بعد أن كان قبل لحظة يحسب أن الفعل ذاته قد تم!

إلا إن المسكينة سارعت إلى الجواب:

- ضربتني حين كنت ما تزال فوقي!

وقامت القيامة، وأعلنت براءتي.. وطردت البنت!

لقد ربحت الدعوى لأنني لعبت - بصورة مصغرة - لعبتكم: كان المنطق معي، وكذلك الواقعية... ولكن الحقيقة - لو علم والدي وعلمتم - كانت غير ذلك!

أترون؟

إنني لا أؤمن بأنني أتلقى الآن عقابي على ذلك الحادث... كلا.. حياتنا ليست مرتبة على هذه الصورة: لقد برأت ضميري حين دأبت على مساعدة الفتاة حتى تزوجت وقد كنت دائماً على علاقة جيدة معها.. وحين رزقت بابن مضيت أصرف له مساعدة شهرية صامتة...



قلت - لأعود إلى موضوعنا - أنني حسبت أن براءتي أضحت على مرمى حجر، ولكني كنت واهماً.

كانت الحقيقة وراء مشاعري المغلوطة هي أن القصة الحقيقية التي حدثت باتت غير مهمة، وأننا كنا ندخل في عالم شفاف، مزيف، كان لا يعني أي واحد منا.

وحين ذهبت إلى زنزانتي صفا ذهني من جديد.

واستعرضت المسألة بدقة.

وأدركت أن مرافعة الدفاع تحتوي على سلسلة من الأخطاء المهلكة.

وفي الوقت الذي كنت متأكداً فيه أن الاتهام سيكشف تلك الأخطاء واحدة بعد الأخرى فقد كنت واثقاً أنه، بالرغم من ذلك، فسيظل منطق الادعاء مهزوزاً أمام بضعة نقاط أخرى لا سبيل إلى دحضها أو كشفها، أجاد الدفاع استعمالها إلى أبعد مدى يستطيعه.

وكنت قد نجحت في أن أضع نفسي خارج الموضوع وأراقبه عن بعد فحسب، كما كان يفعل الجميع تقريباً، تسألونني ألم تكن حياتي تهمني على الإطلاق؟ بلى من منّا لا يهتم بذلك؟ ولكن الأمر كما حاولت أن أقول في هذه الأوراق كلها أكثر تعقيداً من أن يؤخذ بمثل هذه البساطة.

إنني مطوق بصورة تستعصي على الإفلات، قد تكون هذه الحقيقة هي الكبرى في تحديد مشاعري الآن، ولكن ثمة حقائق أخرى تتراكب وتكوّن ما هو أكبر من تلك الواقعة القانونية.

أنتم حين تعزلون السجين عن العلاقات البشرية، عن الحب، عن العمل، إنما تساعدونه على إجراء تقويم خاص وجديد للحياة ذاتها، ما هي الحياة أيها السادة، إذا كانت تجري في معزل عن ذلك كله؟ قد تقولون أنها تعني، حينذاك، الأمل في استرجاع تلك القيم جميعاً ذات يوم، ولكن هذه المواساة ليست حقيقية إلا بمقدار بسيط، فالزمن وحده هو الذي سيكشف للإنسان المعزول بين جدران أربعة أن تلك القيم إنما هي في الواقع لعبة اخترعناها نحن لنعبر شوطنا دونما ملل كبير، فما الذي ستعنيه الحياة حينذاك؟

لن أدعي هنا أني لم أكن لأخشى الموت، كلا - هذا شيء لم أفكر فيه كثيراً في الحقيقة - إنه من أصعب الأمور على الإنسان أن يتصور موته الخاص، بلا سبب. لقد كنت افترض الموت كاحتمال نظري أمامه احتمال آخر ومساو، ويبدو إن الصمت قد ساعدني كثيراً على اعتياد ذلك الافتراض إلى درجة لم أعد أخشاه كثيراً.

كنت مريضاً جداً يوم عقدت المحكمة جلسة خاصة للاستماع لرد الاتهام، وسمح القاضي بغيابي شرط أن أطلع على نسخة من

المطالعة وقد جيء لي بها عند الظهيرة، كانت تكراراً للقصة كما يراها الاتهام مع شيء من التفاصيل.

لقد رفض الاتهام فكرة وجود «رجل مجهول» آخر في الجريمة، وسخر من هذه النقطة التي اعتمد عليها الدفاع، وتساءل عن ذلك المجهول الذي لم يبرز إلا عند الجريمة، ولم يقبل ما قاله الادعاء حول الرسالتين اللتين وصلتا في فترة واحـدة تقريباً للشاب الأرجتنيني ولسعيد الحايك وتحدّاه في أن يثبت، بأية صورة من الصور، وجود «شخص» مجهول قام بتوجيههما للرجلين، وقال إنه حتى لو افترضنا وجود مثل ذلك الشخص فما هي مصلحته من دفع الطرفين إلى المحكمة في وقت كان يستطيع فيه أن يتصل مباشرة بعائلة الحايك للمساومة دون الدخول في حيثيات القضاء.

ووصف الاتهام قصة قيام «المجهول» بارتكاب الجريمة بأنها «خيالية وغير معقولة وتفتقر إلى الأدلة» وقال بأن كون بوّاب العمارة لم يشاهدني وأنا أدخل إلى البناية في المرة الأولى ليس برهاناً على أني لم أدخلها، فشهادة البواب في هذا المضمار ليست قاطعة، أولاً لأنه اعترف بغيابه لفترة ما تلك الليلة، وثانياً لأن عمارة من أربع عشرة طبقة يقوم بالدخول إليها والخروج منها عدد من السكان والزوار ليس بوسع رجل واحد تذكّر وجوههم جميعاً.

ورفض الاتهام في لهجة قاسية، الطريقة التي برّر فيها الادعاء رمي «رزمة متطاولة» في البحر، ولم يقبل تفسير الادعاء لموضوع الوثيقة الحاسمة وكيفية وصولها إلى يد ليلى ووصف كلا الأمرين بأنهما تصوّر يفتقر إلى الأدلة.

وكان المحامي الأشيب جالساً على مقعد خشبي في الزنزانة، ينظر إليّ قلقاً وأنا أقرأ الاتهام بإمعان، وحين أنهيت القراءة ناولته الأوراق فأخذها وطواها بدقة، فيما كان منصرفاً إلى تفكير عميق، ووضعها في محفظته ثم أنشأ يحدق إلي محتاراً.

وأخيراً قال، بصوت تعس، إنني أضعه بصمتي في موقف مضحك.

ونهض وربط يديه وراء ظهره وخطا نحوي وهو يقول:

- أنا محام يا أستاذ صالح، ولست كاتب قصص... لماذا لا تساعدني...؟

وانتظر، مرهفاً حواسه جميعاً، أية إشارة جديدة إلا إنه عاد فهزّ رأسه ومضى يسير بخطوات صغيرة داخل الزنزانة ثم وقف والتفت نحوي:

- إنه من النادر أن يستطيع محام مثلي أخذ قضية لمحام مثلك على عاتقه، أنا واثق بأنك تستطيع أن تكون عنصراً مساعداً جداً،

أنت أكثر خبرة منا جميعاً، ثم إن القضية قضيتك ...

ولم يستطع أن يضبط صوته فصاح :

- وهي حياتك أيضاً.

وحين يئس تماماً عاد إلى المقعد فجلس، وفكّر قليلاً، ثم قال:

- أنا واثق من شيئين على الأقل، أولهما أنك لم ترتكب الجريمة، وثانيهما أن رجلاً مجهولاً لعب الدور الأساسي، ولكن هذا كله لا يعني شيئاً أمام الأدلة الموجودة - أنا في حاجة إلى عقلك ومقدرتك.

وكان يتوقع، كما يبدو، أن تلاقي هذه المحاولة الجديدة ما لقيته المحاولات السابقة، فاتكأ بهدوء وحدّق إلى السقف ومضى يرسم لوحة:

- ثمة رجل مجهول كان يتابع الأمر كله عن كثب، كان يمتلك وثيقة واحدة تثبت أن الصبي الأرجنتيني ليس وريثاً، ولكنه لم يكن ليستطيع استعمال هذه الوثيقة إلا إذا انبرى الشاب للمطالبة بحقه، وكان يعرف أنه حين تتعقد القضية في المحاكم يستطيع أن يبيع الوثيقة إلى أحد الطرفين، وهكذا دفعها ببراعة نحو القضاء، واختفى طيلة تلك الفترة ليظهر في الوقت المناسب، كما ترى وعكس ما قال الادعاء أن ذلك المجهول لم يكن ليستطع مساومة آل الحايك على تلك الوثيقة لأنهم لن يهتموا بها، كان المجال الوحيد أمامه هو أن

يخلق الجو الذي يضمن لتلك الوثيقة قيمة ما.

وفكر ملياً فيما قاله، ونفض يديه أمامه محتاراً وأخذ يهزّ رأسه وتمتم متحسراً:

- ولكن كيف يمكن إثبات وجود ذلك الشخص المجهول؟

ونظر إليّ من طرف عينيه، متوقعاً بصورة تكاد لا تلحظ، أن أعطي جواباً ما، وحين لمس فشله الجديد مضى كأن شيئاً لم يحدث:

- لو افترضنا أننا نكتب رواية مثيرة لوضعنا احتمالاً آخر، لقلنا إن الرجل المجهول هو الأب الحقيقي للشاب الأرجنتيني، وأن ما فعله كان عملاً يستهدف منفعة الابن الذي أمضى عمره كله يظلمه، والذي بات موت والد ليلى يهدده بظلم أفجع!

وضحك، بمرارة، ثم نهض متثاقلاً وحمل حقيبته وأخذ ينظر إليّ، قاعداً على السرير الخشبي الواطئ كقطعة منه:

- إنك الوحيد الذي يستطيع أن يثبت شيئاً هاماً، أين كنت بين السادسة والسادسة والنصف من ذلك المساء المشؤوم؟ ولماذا ذهبت إلى ليلى؟

وخطرت في جبينه فكرة سريعة فعاد وجلس:

- في الواقع هناك أسئلة أخرى بحاجة إلى جواب: لماذا عدت

إلى مكتبك؟ ما الذي حملته معك؟ ما الذي رميته في البحر؟ لماذا رفضت التسوية بين آل الحايك والشاب الأرجنتيني؟ لماذا؟

وبهدوء، وبصوت كالثلج، جاء السؤال الذي توقعته منه دائماً:

- أتكون أنت الذي قتلتها حقاً أيها التعس؟

ووضع حقيبته على الأرض وانحنى باتجاهي:

- قد تكون ذهبت لليلى لسبب شيطاني لا أعرفه، هذا لا يهمني الآن.. ولكن من الذي قتل ليلى؟

وبالرغم من أنني لم أكن أنوي الجواب إلا إنني مضيت، حقاً، أفكر بالسؤال، ولم أستطع أن أجد أية بادرة لأي جواب فهززت رأسي بالرغم من سيطرتي على نفسي فصاح:

- ها! ها! نحن آخذون في التحسن الآن. إنني على يقين أنك على الأقل تستمع إلى ما أقول، ما كان ضرّك لو، بدلاً من هذه الحركة، قلت شيئاً؟

وشجعته البادرة فنهض، وقرفص أمامي كما يفعل والد رحب الصدر:

- سعيد الحايك؟

سأل بصوت خفيض، يكاد لا يسمع، مشحوناً بالتردد وبتأنيب الضمير، ثم وضع بنفسه حيثيات الجواب:

- يبدو ذلك مستحيلاً، فقد حاول الانتحار حين علم، وكان في الأرجنتين آنذاك يحضر لها مفاجأة سعيدة، ثم لماذا؟ كان يحبها بجنون، وقد منح الإرث كله لأعمال خيرية باسمها دون أن يكون مضطراً لذلك، لقد كان الوحيد الذي يعرف أنها نوت ذلك، وكان بوسعه الاحتفاظ بالإرث كله، لو شاء..

وتردد قليلاً وسأل:

- هل كانت تخونه؟

وحدق إلي متحفزاً، ولا شك أن فكرة جهنمية عبرت جبينه عبوراً صاعقاً، فقال، مستثاراً:

- معك أنت؟

ومضى يضع جواباً:

- ليس ثمة أي دليل، لا مادي ولا حتى ظني.. ومعك أنت؟ هذه مسألة ليس من الهين إثباتها، وحتى لو كان هذا صحيحاً فمن الأكيد أن سعيد الحايك لم يكن يدري، لقد حققوا معه طويلاً في مثل هذا الاحتمال ولو كان يدري إذن لما حاول الانتحار.. ثم لماذا يقتلها هي؟ معك أنت؟ ثم لماذا يدفع عنك تكاليف الدفاع؟

ونفض ذراعيه:

-... وهذا لا يثبت شيئاً على أي حال - إلا إنك زرتها ليلتذاك،

وإلا إنك كنت، أغلب الظن، في الداخل - أي أنك ارتكبت الجريمة.

وقرر:

- دعنا من هذه النقطة، هل ثمة رجل آخر؟

وسار في الزنزانة، يدق خطواته في حيرة وتردد، ثم توصل إلى موضوع جديد.

لنقل ما يلي:

- ذهبت أنت لتزورها، وقبل ذلك بنصف ساعة حاول لصّ ما أن...

وسكت فجأة، كما لو أنه اكتشف بنفسه أن ما سيقوله لا يحمل أية قيمة، ورغم ذلك فقد احتملت رغبته في الكلام فترة صغيرة من التردد، ثم قال:

- طيب، لنقل أن لصاً ما كان في تلك الأثناء يحاول سرقة البيت، وفوجىء بليلى فطعنها، وكان ينوي حقاً السرقة وليس أي أمر آخر، وقد سرق المجوهرات. لنقل إن سرقة المجوهرات. ليست تمويهاً، ألا يبدو ذلك منطقياً لو...

وسكت مرة أخرى، وما لبث أن قالها:

- ... لو أنهيت إضرابك، وقلت شيئاً، وساعدت في وضع مطالعة قانونية؟

كانت الحيرة هي التي أخذت تدفع به من تصوّر إلى آخر، في الحقيقة أن كل ما كان يريده الآن هو أن أحكي.

لقد بات يشعر بأن صمتي قد حمّله مسؤولية لم يكن يتوقعها تماماً، وأنني لو تكلمت لتخلص من جزء كبير من هذه المسؤولية.

لقد استنفد وسائله فعاد يلتقط حقيبته، ودون أن يقول شيئاً، أشار للحارس أن يفتح الباب، وفقط حين انتهى الحارس من إغلاق القفل مرة أخرى التفت إليّ، وبدا لي في لحظة واحدة سجيناً، وإنني إنما أزوره، وقال محذراً:

- أنت لست في موقف حسن... وأخشى أن يكون رأسك أقرب إلى المشنقة مما تتصور، وأنا أقول لك ذلك كي تقرر مصيرك بنفسك.

واستمعت، حالماً، إلى صدى خطواته الثقيلة المترددة تعبر الرواق الحجري الكامد، كأنها كانت تعتزم بالرغم منه العودة إليّ، وبدا لي ان كل شي تبقى من هذا العالم آخذ في الابتعاد عني للمرة الأخيرة، وقد قمت بهدوء فأمسكت بقضبان الحديد وفكرت بكل ما لدي من قوة للحظة واحدة فقط، ولكني لم أجد شيئاً جديداً يستحق أن يجبرني على تغيير قراري، لقد جاؤوا بالعشاء فأكلت دون اهتمام من ذلك النوع الوحيد من الطعام الذي اعتادوا أن

يقدموه لي، كانت الآلام ما تزال تختبىء في معدتي، وكنت أعرف أني سأمضي ليلة متعبة، ولذلك غفوت مبكراً.

ولم أكن أدري - تلك اللحظة - أن سعيد الحايك كان يتقدّم بطلب إلى المحكمة ليتكلّم في الجلسة التالية!

وفوجئت يوم الحكم بأن المحكمة أعطت فرصة لسعيد الحايك كي يتكلم بناء على طلب ملحّ، وحين وقف على منصة الشهادة بدا تعساً وحائراً.

قال سعيد الحايك أنه - رغم كل ما حدث - لا يعتقد أني القاتل، ولا يعتقد أني أنا الذي كتبت الرسالتين المغفلتين اللتين أرسلتا له وللشاب الأرجنتيني، وقال أنه حين قابلني أول مرة لم أكن أعرف إطلاقاً أي شيء عن القضية، ثم استأذن المحكمة في أن يتوجه بالكلام إليّ مباشرة، وحين منح الأذن استدار نحوي، وخيّل إليّ أني رأيت في عينيه دموعاً، ورجاني في صوت مؤثر أن أتكلم، لا لأقول أي شيء ولكن لأوجه إليه أي سؤال أشاء، وأقسم أن يجيب بكل ما يعرف...

وانتظر دقائق وهو يحدق إليّ، وكانت القاعة كلها تحدّق إليّ أيضاً، وحين خيّم صمت ثقيل، عاد سعيد الحايك فقال أنه قد يكون ذا نفع في جانب لا يعرفه، وقال لي إني قد أعتقد أنه يعرف شيئاً،

أو أنه قد يساعد في إيضاح بعض النقاط ورجاني مرة أخرى أن أسأله أي سؤال، أو اطلب منه الحديث في أي موضوع ولكني اعتصمت بالصمت.

ومرة أخرى استدار وأخذ يخاطب القاضي، أقسم في البدء أنه قال كل ما يهم المحكمة أن تعرف، ورمقني بطرف عينيه، وهو يقسم ويده أمامه بأنه لا يعرف شيئاً عن الذي أرسل الرسالتين المغفلتين، ونظر إليّ مباشرة وقال:

- قد تكون شاكاً في أمر الرسالتين، ولكني أقسم لك بذكرى ليلى- وأنت الذي يعرف كم أقدس هذه الذكرى - بأني لا أعرف شيئاً إلا ما قلته للمحكمة.

ومرة أخرى خيّم الصمت، وكنت أنظر إلى البلاطة التي تقع بين حذائي، مسيطراً تماماً على كل حواسي وجسدي، وقد سمعته، وأنا مجمد، يعلن للمحكمة ولي أنه سيمنح نصف الإرث لزوجتي، تعبيراً منه عن عطفه عليّ، وأنه سيكتفي بمنح النصف الآخر للمشروع الخيري الذي أوصت به زوجته.

ونزل سعيد الحايك عن المنصة ببطء، وحين صار أمام القفص وقف هنيهة، وسأل وهو يرتعش:

- أتريد أن أقول شيئاً؟

وحين لم يتلق جواباً، مضى بهدوء، إلى مقعده.

وأخذت الضوضاء، في القاعة تتصاعد من الهمس إلى الكلام إلى زحزحة المقاعد، وعبر هذه الدوامة التي كان صداها يرتد من جدار إلى جدار، ضيعت كل قدرتي على فهم سعيد الحايك، لقد بدا ذلك الرجل المصطبغ بالنبل الضروري جالساً بين الناس لغزاً يستعصي على الفهم. ولكني كنت واثقاً بأنه لم يرتكب الجريمة كما كان واثقاً بأني لم أفعل، لقد كنا نتبادل، صامتين، عملة عجيبة اسمها التواطؤ، دون أن نتفق على ذلك، وكان كل ما حدث بيننا أمراً يخصنا وحدنا. لقد فكر سعيد الحايك، كما يبدو، أن يروي حقيقة قصة الإرث، ولكني أدرك الآن أنه هو ايضاً لم يكن يعرف الحقيقة الكاملة، ولم يعد يعرف كيف فلتت الخطة من بين أصابعنا معاً، وحتى لو قال الحقيقة فإن ذلك لم يكن ليحل الإشكال، إن قصته لا تبرهن على أي لم أفكر بالمساومة، وليس ثمة ما يثبت صحتها - ستبدو محاولة صبيانية يبذلها صديق لإنقاذ صديقه من الموت، ومهما يكن فقد كنت عاجزاً عن تصور الطريقة التي أقنع سعيد الحايك نفسه بواسطتها بأن عليه أن لا يقول تلك الحقيقة الجزئية العابرة، وقد منحني فرصة عادلة لأوافق على اجتهاده ففعلت.

إن سعيد الحايك كان يراوده الشك منذ البدء في أني قد أستغل هذه القضية لمصلحتي، وقد أشار إلى ذلك عابراً مرة أو مرتين، فإذا كان هو ذاته يشك في الأمر، فلماذا لا يتيح للقضاء أيضاً فرصة مماثلة؟ ألم يكن ذهابه إلى الأرجنتين من وراء ظهري تعبيراً عن ذلك الشك؟ كيف سيبرره إذا روى القصة الحقيقية؟ ماذا عنده ليقول حول علاقتي بليلى وهو الذي يعرف أنه لا توجد أية علاقة بخصوص القضية المتفق عليها. كيف سيبرر ذهابي لبيتها؟ ما هو الاتهام البديل؟ بمن يشك إذن؟

لقد طرح بلا شك هذه الأسئلة على نفسه واكتشف أنها لن تؤدي إلى جواب، وقد أخذت القضية منذ البدء اتجاهاً فرضته مجموعة ظروف لم يكن يتخيل أي منا أنها ستصل إلى ذلك الحد، واذا ما بذل أية محاولة للعودة إلى نقطة البدء فقد كان يدرك أنه قد يقع في مكاني، إن زحزحة صغيرة للأسس التي افترضها الاتهام ووافقه عليها الدفاع من حيث لا يدري ستغير أمكنتنا، وستضعه هو بين فكي تلك المصادفة الرهيبة - إنني أستطيع، لو كنت مكان الادعاء وكان سعيد الحايك في مكاني، أن أكتب مطالعة محكمة، تضع رأس سعيد الحايك في حبل المشنقة، دون أن يكون هو بالذات مرتكب الجريمة.

هل تريدون أن أحاول ذلك؟

إنني أستطيع أن أفترض أن سعيد الحايك وجد دلائل تشير إلى علاقة بين زوجته والمحامي صالح، وقد أدرك أنه هو، من حيث لا يدري، كان سبب هذه العلاقة نتيجة للعبة غريبة حول وريث مزعوم كان يدرك منذ البدء أنه يستطيع التخلص منه في أية لحظة تحت وطأة وثيقة كانت معه منذ البدء، وهو الذي وضعها بين كتبه بعد الجريمة وليس قبلها، وقد قرر أن يقوم بالجريمة لأسباب عاطفية أولاً، ولأن الإرث سينصب عنده ثانياً، وقد نفذها بالواسطة، إبان رحلة مصطنعة إلى الأرجنتين - إن قضية التبرع بالإرث قد تكون وسيلة لإبعاد الشبهة، وسيظل من الميسور أن يجد المحامي البارع وسيلة ليثبت أن التبرع كان مشروطاً وأنه لم يكن حقيقياً تماماً، وعلى أي حال فإن هذه النقطة كانت للتمويه، تماماً كما كانت سرقة المجوهوات.

وفي هذه القصة يمكن أن توضع قصة المحامي صالح في مكانها السليم، زيارته لليلى، وزجاجة العطر والدخان والبصمات والهاتف وكل شيء.

ولكن هل هذا الصحيح؟ إن هذا الاتهام كله مبنيّ على أن سعيد الحايك كان يعرف بوجود علاقة بيني وبين زوجته: وهذا غير

صحيح، ومبنيّ على أن غيرة سعيد الحايك هي الحافز وراء الجريمة وهذا افتراض خادع وغير مثبت في وقائع.

ورغم ذلك فهل كان سعيد الحايك على استعداد ليروي القصة الحقيقية؟ وهل كنت أنا، من ناحية أخرى على استعداد لأروي الجانب الحقيقي المتعلق بي؟ وفي سبيل ماذا؟ إننا نحمل، كل على طرف، قناعة كاملة ببراءة الآخر.. وكان لا بد لواحد منا على الأقل، هو ذاك الذي لا سبيل إلى التقليل من الأدلة ضده، أن يدفع الثمن.

ولكن من الذي قتل ليلى الحايك؟

سؤال يؤرقه بقدر ما أرقني - ولكني الآن تخلصت من همه. الصدفة هي التي فعلت - أيها السادة - الصدفة - ليس يهمني إن كانت تلك الصدفة قد لبست ثوب لص، أو ثوب مجرم جهنمي كان ورائي منذ البدء، ذلك أن الذي يهمني هو أن خصمي في هذه القضية الفاجعة إنما هو الصدفة، وهي التي دفعتني، بإصرار لا يصدق، لقفص الاتهام.

وعليها الآن - وحدها - أن تتقدم، إذا شاءت أن تطلق سراحي!



مضى أسبوع آخر.. وعقدت الجلسة الأخيرة في جو حزين مشحون بالقلق. لقد رد القاضي بكلمات موجزة صارمة دفاع محاميّ، وأكد أن المحكمة لا تجد أي دليل لافتراض رجل آخر في الجريمة، وأعلن عن عدم قناعة المحكمة بتبريرات الدفاع وتفسيراته الافتراضية لجملة الأدلة الثابتة.

قال القاضي إنني وقت وقوع الجريمة، كنت في بيت ليلى وإن قناعة المحكمة بهذه الحقيقة مستندة أولاً إلى بصماتي، وثانياً إلى كوني لم أستطع ولم يستطع أي شاهد إثبات وجودي في مكان آخر، وثالثاً إلى شهادة هناء حول هاتف الظهيرة، ورابعاً إلى وجود علبة سجائري في مكان الجريمة، وخامساً إلى شهادة الأشخاص الثلاثة من سكان العمارة الذين رأوني أتردد على باب المصعد، وسادساً إلى شهادة البواب الذي رآني أضع شيئاً متطاولاً يشبه السكين في معطفي، وسابعاً إلى شهادة بائع السجائر الذي رآني أتخلص من هذا الشيء على شاطئ البحر.

وقال القاضي إن لدى المحكمة قناعات بأن حافزي منذ البدء هو الخروج بحصة كبيرة من الإرث، وقد أثبتت الأدلة المسلسلة تخطيطي للحصول على تلك الحصة، وأشار اعترافي من طرف خفي إلى النية التي كادت أن تضيع عليّ حين عرفت أن سعيد الحايك

سيجري اتصالاً مباشراً مع الوريث المزعوم.

وقال القاضي إن المحكمة تمتلك أدلة لا تدحض تثبت حاجتي الشديدة إلى المال، وإنه كان عليّ أن أسدّد ديوناً بصورة نهائية خلال شهور قليلة.

ورفضت المحكمة الزعم القائل بأن محامياً قديراً مثلي تفوته الحكمة وحسن التقدير فيأخذ على عاتقه قضية من هذا النوع لمجرد أن رسالة مغفلة وصلت إلى خصمه، واطلع عليها بالصدفة ونصيحة ساذجة أعطاها له الزوج الشكاك.

وانتهى القاضي إلى القول بأن الجريمة كانت مخططة عن سابق تصور وتصميم، واستند للوصول إلى ذلك الاعتقاد بتسلسل الحوادث المنطقي، وبعدم تركي أي بصمات في مسرح الجريمة ما عدا ذلك الأثر المصادف الذي تركته دون وعي على حافة الباب في المرحلة الأولى من الجريمة.

وقال إن جريمتي لم تكن ضد إنسانة فاضلة لمجرد تحقيق مطامع مالية فقط، ولكنها كانت ايضاً ضد شرف مهنتي وضد وعود أعطيتها للضحية ولزوجها.

ووصل إلى القول إن ذلك كله يظهر بأن المحكمة إنما تواجه مجرماً محترفاً يتسلح بالذكاء وبالخبرة، وإن وجوده يشكل خطراً

مهماً على العدالة والمجتمع.

وأعلن القاضي أن هيئة المحكمة قانعة تماماً بأن صمتي هو نوع من الاعتراف بالجرم سببه وفرة الأدلة التي لم أكن أحسب لها حساب. وعدد فيما بعد، والجميع وقوف، سلسلة لا تنتهي من المواد القانونية بلهجة شديدة الفخامة. ثم نظر إليّ مباشرة وهو يقضي بأن العقاب سيكون - كما توقعت وأنا أستمع إلى حيثيات الحكم - الإعدام شنقاً حتى الموت.

إنني أمنحك هذه الأوراق جميعاً، يا زوجتي الحبيبة، لتتصرفي فيها كما تشائين....

أنت وحدك التي تستطيعين أن تقرري ماذا ينبغي عليك أن تفعلي فيها: أن تحرقيها، أو أن تهديها للعدالة ذات يوم - فإذا كنت أنا قد مضيت بصمت فالذي تبقى مني هو أنت.

لقد شهدت في عينيك، قبل الاستماع إلى الحكم، ومضات من نظرات الشك وأنا لا ألومك ولكني أعطيك القصة الحقيقية، قصتي وقصة ذلك الشيء الآخر الذي كنت، طوال أيام السجن القاسية، في عراك صامت معه، وراء القانون، وراء الاتهام والدفاع، وراء دموعك وعجزي، وراء منصة القضاء ووراء الضحية التي طعنت حين كنت، أنا أحلم بجسدها المعطر بين ذراعي.

ولست أنا الذي يستطيع وضع نهاية للقصة...

إنني أحس ببرودة الموت في أطرافي، وأصحو في الليالي الصامتة لأفك عن عنقي كابوساً من الليف والزيت وأمضي في ذلك الانتظار التعس خارج منطق الزمن والبشر، في عراك نادر مع شيء آخر لا أعرفه ولا نعترف به.

لست أنا الذي يستطيع وضع نهاية للقصة...ولست أدري إن كنت أستطيع أن أحبس لساني حين يأخذونني - ربما الليلة - إلى الموت.

إنني لا أدعي الشجاعة ولكنني أعترف بالعجز، وإذا انفك لساني رغماً عني وأنا أاصعد إلى حبل النهاية فلست أعرف كيف ستكون الحياة بعدها، ولكني أعرف أنها ستكون قصيرة جداً، وأني سأساق إلى ذلك الحبل مرة أخرى..

إني شديد التعاسة لأني تركت لك، أمام الناس، ميراثاً قذراً ولم أكتب هذه الأوراق إلا لأجعل تعاستك أقل، وأعطيك حريتك الكاملة في أن تقرري الميراث، الذي تريدينه مني: أوراق القانون أم هذه الأوراق.

ولكن هل تصدقين أنني أحببتك وسأظل أحبك؟

ستجدين صعوبة في أن تفعلي، ولكن الكلمة الأخيرة التي

سأظل أقولها لك هي أنني أحبك، يا ديما، أحبك أحبك.

تصرفي كما تشائين في الإرث، إرثي وإرث ليلى المسكينة، قد تحتاجين إلى هذه الأوراق لتشقّي طريقك نحو زوج آخر فأنت صبية وجميلة، والأيام إنما هي غبار تترسب ذراته الناعمة فوق ذاكراتنا...

سأضع هذه الأوراق مع محاميّ المسكين الذي بذل جهداً مشكوراً في قضية يائسة، وسأكتب له على الغلاف أن لا يعطيها لك إلا بعد أن ينتهي كل شيء، وأرجو أن لا تدفعه حيرته إلى فتحها قبل الوقت المناسب.

وسأدعو لنفسي، ذلك أنه لا يوجد أي إنسان آخر يعرف الحقيقة ليدعو معي، أن أسيطر على لساني وأنا أساق، غداً أو بعد غد لست أدري، إلى حبل الليف والزيت....

... وأن تستطيع رحلة الصمت عبور تلك الخطوات الرهيبة إلى الموت...

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

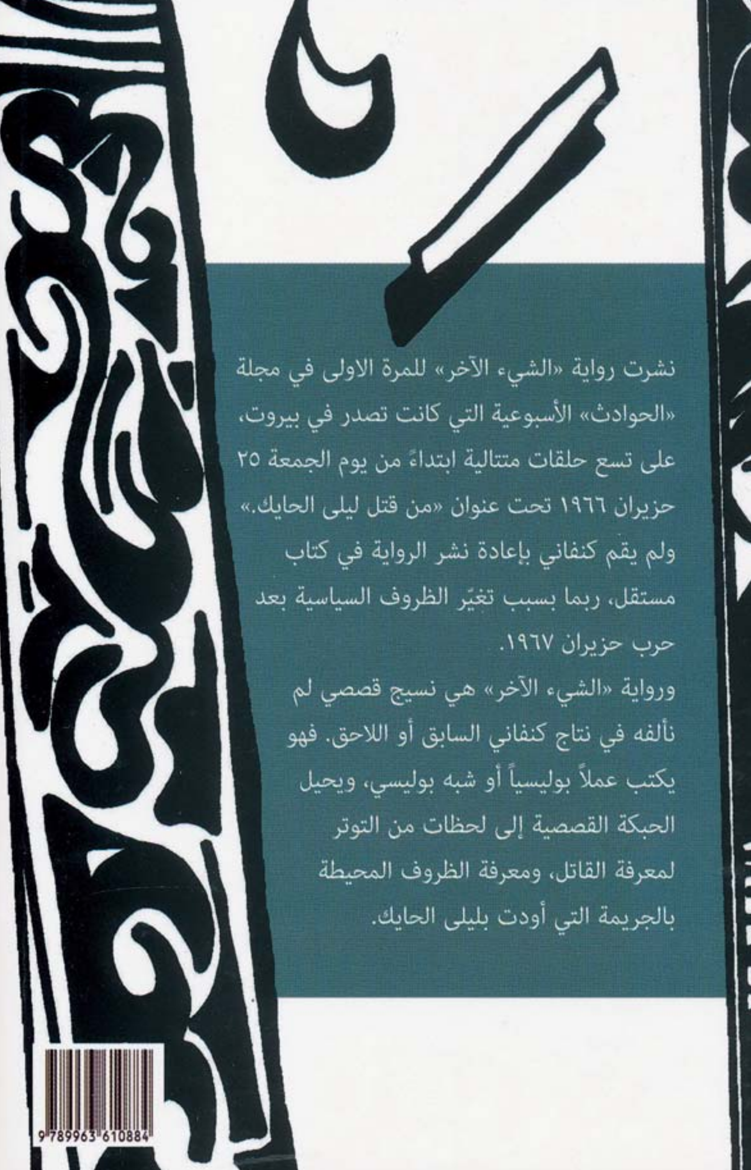
جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



نشرت رواية «الشيء الآخر» للمرة الاولى في مجلة «الحوادث» الأسبوعية التي كانت تصدر في بيروت، على تسع حلقات متتالية ابتداءً من يوم الجمعة ٢٥ حزيران ١٩٦٦ تحت عنوان «من قتل ليلى الحايك.» ولم يقم كنفاني بإعادة نشر الرواية في كتاب مستقل، ربما بسبب تغيّر الظروف السياسية بعد حرب حزيران ١٩٦٧.

ورواية «الشيء الآخر» هي نسيج قصصي لم نألفه في نتاج كنفاني السابق أو اللاحق. فهو يكتب عملاً بوليسياً أو شبه بوليسي، ويحيل الحبكة القصصية إلى لحظات من التوتر لمعرفة القاتل، ومعرفة الظروف المحيطة بالجريمة التي أودت بليلى الحايك.

9 789963 610884